على أدهم

تلاقى الأكفاء



على أدهم

تلاقي الأكفاء



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

فصول هذا الكتاب لمحات تاريخية – أرجو أن تكون كاشفة موحية – وصور جلية موجزة لبعض العلية النادرين من رجال الأقدار ، وأفـذاذ التاريخ ، الذين جازوا بهذه الحياة – وادى العبرات كما سماها القدماء – متغلبين على صعابها ، مستعلين على ضروراتها ، وتبوءوا من التاريخ موضعاً ملحوظاً ، واستأثروا منه بصفحات حافلات . ولم يكن من همى أن أستقصى جملة أخبارهم ، وأستوعب شتى أحوالهم ومنازعهم ، وإنما حاولت أن أجلو طرافة شخصياتهم بطريقتين : إحداهما أن أتخير بعض المواقف الخاصة البارزة فى حياتهم ، وطائفة من الحوادث المعينة التى انتابتهم وأظهرت مدخر قوتهم ، وكامن ملكاتهم . والطريقة الثانية توضيح أثر احتكاكهم بشخصيات أخرى تماثلهم فى الاقتدار والفحولة ، وتساميهم فى الإنافة والسموق ، وتخالفهم فى طبيعة الملكات والمواهب ولون المزاج وطريقة فهم الحياة والنظر إلى الكون . وإذا صح أن الأشياء تتميز بأضدادها فإنى أرجح أننا نعلم أشياء كثيرة قيمة عن نابليون بتأمل علاقة برجل مثل تاليران ، ونفهم جوانب هامة من شخصية لينين بدراسة صلاته بماكسيم جوركى . ولعل موقف فردريك من فولتير يمدنا بمعلومات نفيسة عن نفسه وأخلاقه ويكشف لنا عن أساليب فردريك فى السياسة وأفانينه فى الدهاء ، ولعلنا نفهم المنصور فهماً أدق وأوفى إذا ألممنا بموقفه حيال أبى مسلم من ناحية وبموقفه إزاء عمه عبد الله بن على – بطل وقعة الزاب – من ناحية أخرى . وقد لجأ فلوتارخس Plutarch كاتب التراجم المشهور بل

إمام كتاب التراجم قاطبة إلى عقد الموازنات التاريخية فى ذيل بعض تراجمه لأعيان الرومان واليونان ، وكان يتحرى فى موازناته تشابه الملكات ويتكلف الموازنة تكلفاً ، أما الموازنات فى هذه الفصول فإنها من عمل « عبقرية التاريخ » وقد جاءت عفواً فى سياق حوادثه وغريب اتفاقاته وروائع ملابساته . وفى اعتقادى أن أمثال هذه الفصول قد تجدى فى علمى النفس والاجتماع وتعين المؤرخ على النفاذ إلى دخائل التاريخ وإدراك جانب من علله الخفية وبواعثه المجهولة . ولست فى دراسة التاريخ من مقدسى الأبطال وعباد العظماء ، ولكننى شغوف بتتبع الطرز النفسية المختلفة ، والأنماط الأخلاقية المتباينة التى تجود بها الطبيعة المعطاء ، ولست من الذين يبغون من التاريخ استخراج العبر والمثلات ، أو يلتمسون فيه مضرب المثل وموضع القدوة ، والانتفاع بعبر التاريخ فى رأيى من الأمور المشكوك فيها ، واتخاذ العظماء قدوة من الأمور المسلية . ولا يمكن القزم أن يصير عظيماً بمجرد إطلاعه على سير العظماء ومحاولته محاكاتهم ، وربما يصور له الوهم أنه أصبح عظيماً ولكن الناس سيرون منه غير ذلك .

ومن جهلت نفسه قدرها رأى غيره منه ما لا يرى

وقد زعموا أن نابليون حاول غزو الشرق تشبهاً بالإسكندر المقدونى ، وإذا صح ذلك فربما كان من أسباب إخفاقه ودواعى سقوطه . وخير للإنسان أن ينمى ملكاته فى الحدود المقسومة لها من أن يحاول صياغتها على مثال خارجى ، وصبها فى قالب غير القالب الذى فرضته عليه طبيعته . وإنما أحاول أن أستعين بالتاريخ والتراجم على توسيع آفاق النفس والاستكثار من التجارب وفهم حقائق الكون وأسرار الحياة . واستجلاء غوامض الحياة لا يلتمس فى أغوار البحار وحدها ولا فى خوافق السماء وخفايا الأرض فحسب ، وإنما فى « نفس الإنسان » ومن ثم أهمية التراجم فى الأدب الحديث لأنها تتناول صميم الحياة ولبابها وتعرض صور

النفس الإنسانية وتروى قصة أشواقها وشجونها ومساءاتها ومسراتها ، وأجل موضوع دراسة للإنسان هو الإنسان نفسه ، وما أصدق قول الشاعر الحكيم :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

على أدهم

٧

التاريخ وتلاقى الأكفاء

تلاقى الرجال العظماء البارزين من الطرز المختلفة فى رحاب التاريخ من المشاهد الشائقة والحوادث الكثيرة الدلالة ، وفى بعض الأحيان يكون هذا اللقاء على غير ما كان يتوقع الإنسان ، مما يدل على أن محتملات الحياة فى بعض المواقف تتجاوز تفكيرنا ، وتعجز عن الإحاطة بها ألبابنا ، من أمثلة ذلك أنه لم يكن هناك رجلان أشد تناقضاً وأكثر اختلافاً فى مذاهب الحياة وأساليب السياسة من المصلح الإنجليزى الاشتراكى روبرت أون وقيصر روسيا الجبار الرهيب نقولا الأول ، فقد كان أون رجلاً ثائراً على تقاليد المجتمع وأوضاعه ، ومصلحاً يرى ضرورة الهدم قبل البناء ، وكان أحد الذين وضعوا أسس الاشتراكية فى إنجلترا .

وكان القيصر نقولا الأول مستبدًّا جائراً وطاغية عنيداً جباراً ، فهو الذى أمر بإرسال الكاتب الروسى الكبير دستوفسكى إلى سجون سيبريا ، وهو الذى اضطهد الزعيم الفوضوى الشهير باكونين واضطره إلى أن يعيش منفيًّا مشردا طوال حياته ، ولم يكن من المنتظر أن يتحاب هذان الرجلان إذا تلاقيا ، ولكن مع ذلك حدث ما لم يكن فى الحسبان ، وكان تلاقيهما وديًّا للغاية ، وحقيقة أن هذا اللقاء الغريب كان قبل أن يعتلى القيصر نقولا عرش روسيا ، وقبل أن يصبح أون زعيماً اشتراكيًّا معروف المكانة ، وقد سافر نقولا معه إلى لاثارك الجديدة فى اسكتلندة ليزور المصنع الذى أقامه بها أون ، ووافق نقولا على نظامه ، وأبدى إعجابه واستحسانه . ودعا أون الإنسانى النزعة إلى روسيا لينشئ بها مصانع

على طراز مصنعه ، وسر أون بهذا التقدير والإعجاب ، والتاريخ يجهل ما كان رأى كل منهما فى الآخر ، بعد أن أصبح نقولا القيصر الطاغية وروبرت أون المصلح الثائر والمجدد المقدامة الجرىء ونصير الحرية .

وتلاقى شاعر الألمان الكبير وحكيمهم الخالد جوته والموسيقار العظيم بيتهوفن ، وكان من المنتظر أن يتحاب الفنانان العظيمان ، ولكن ما حدث بينهما كان مخيباً لهذا الظن ، فقد أراد جوته أن يلزم بيتهوفن اتباع تقاليد البلاط الملكى ، ونفر الموسيقار العظيم من ذلك ، وضاق به ، فلم يصف بينهما الجو ، ولم تتأكد المودة ، ورثت حبال الصداقة .

وقد كتب الكثيرون عن علاقة الإسكندر المقدونى بأستاذه أرسطو ، لأنهما كانا رجلين عظيمين ، وكان أرسطو أستاذاً للإسكندر ، والمفروض أن الأستاذ أثر فى تلميذه وطبعه بطابعه ولقنه حكمته وفلسفته وقد ذهب الفيلسوف الألمانى هيجل إلى القول بأن سير حياة الإسكندر يوضح لنا قيمة الفلسفة ، لأن حكمة الإسكندر العملية يمكن أن تعزى إلى أستاذه أرسطو ، ولكن الحقائق تنقض ما ذهب إليه هيجل ، وليس فى آراء الإسكندر وخططه وتدبيراته ما يدل على تأثره بأستاذه أرسطو ، وقد كان الإسكندر يكره أباه ، وكان متمرداً على كل الذين فرضهم أبوه عليه لتعليمه وتقويمه ، وهناك رسائل يقال إنها من أرسطو إلى الأسكندر ، ولكن هذه الرسائل مشكوك فى صحتها ، وتعد فى رأى الباحثين الثقات مزيفة مصنوعة ، ولا يمكن التعويل عليها ، وبينما كان الإسكندر يغزو مدن الشرق ، ويجعل عصر حكومات المدن أثراً من آثار الماضى ، وينشئ عهد الإمبراطوريات الواسعة الرقعة ، المترامية الحدود ، كان أرسطو فى بحوثه السياسية مكبًا على دراسة نظم المدن المختلفة فى تدقيق شديد دون أن يشير بكلمة إلى ما كان يحدث فى الشرق .

ومن الخطأ الاعتقاد أن العظماء المتعاصرين يقدر كل منهما الآخر ، بل الغالب أن يحدث العكس ، فقد تلاقى الكاتب الكبير فولتير لفردريك الأكبر عاهل بروسيا ، وبعد صداقة قصيرة الأمد انقلبا خصمين عنيدين وعدوين لدودين ، وكان فردريك يقرض الشعر الفرنسي ، ولكن فولتير لم يسرف فى مدح شعره ، وسخر من المدعو موبرتياس الذى اختاره فردريك رئيساً لأكاديمية برلين ، ولم يجد فولتير فى النهاية مندوحة عن الفرار من بلاط فردريك حاملاً معه أصول مخطوط فى هجاء مدام دى بومپادور بقلم فردريك نفسه .

وقد ظلت العلاقة بين المتنبى وسيف الدولة على ما يرام قرابة عشرة أعوام ، وفى ظل رعاية سيف الدولة استطاع المتنبى أن ينظم خير قصائده ، وتتجلى عبقريته فى أوضح صورها ، ولكن الود الصميم والصداقة القوية بين الشاعر الكبير وأميره البطل المحب للأدب لم تثبت فى النهاية لمكر الحاسدين ووشاية الواشين ، وساعدهم على ذلك ما كان فى أخلاق المتنبى من جفوة وكبرياء وفرط إعتداد بالنفس ، فوقعت النبوة ، وفارق الشاعر أميره ، وعرض له بعد ذلك فى شعره باللوم والتعنيف والمؤاخذة إلى حد قوله :

وإن بليت بود مثل ودكم ... فإننى بفراق مثله قمن

وقد حاول سيف الدولة استرضاء المتنبى بعد عودته من مصر إلى العراق ، فأوفد إليه ابنه ليدعوه إلى العودة لبلاطه ، ولكن الشاعر الأبى رفض العودة فى رفق وتلطف ، وصارح الأمير فى القصيدة التى أرسلها إليه ردًّا على رسالته إن سمعه كان ينصر الوشاة ، ولكن دينه وحسبه كانا ينصران أبا الطيب ، والظاهر أن المتنبى كان لا يريد إعادة التجربة عملاً بقول الشاعر الذى سبقه .

إن القلوب إذا تنافر ودها ... مثل الزجاج كسرها لا يشعب

وتلاقى نابليون بالقيصر الإسكندر الأول ، وقد استطاع القيصر الروسى أن

يخدع نابليون عن حقيقته ، ويوهمه أنه رجل ساذج يسهل اللعب به ، والاحتيال عليه ، وفى إبان إزدهار الصداقة الشكلية بين العاهلين كان الإسكندر يكتب إلى والدته يقول لها «الذى يضحك أخيراً يضحك كثيراً» .

وموضوع تلاقى الأكفاء فى التاريخ يوجد عام من الموضوعات التى تكشف لنا بعض جوانب النفس الإنسانية المحيرة وتزودنا بمعلومات قيمة عن طبيعة العظماء ورجال التاريخ البارزين وهو يوضح لنا بعض النواحى الخفية والبواعث المجهولة فى نفوسهم التى تسيطر عليهم فى توجيه الأحداث ووضع الخطط والتدبيرات .

صداقة عظيمة بين جوته وشِلر

يقول الشاعر البريطانى شلى فى رسالته المشهورة التى كتبها دفاعاً عن الشعر : «ليس الشعراء محدثى اللغات ، ومبتدعى الموسيقى والرقص وفن البناء ونحت التماثيل والتصوير فحسب ، وإنما هم أيضاً واضعو القوانين ، وموجدو الحضارة ، ومبتكرو فنون الحياة ، وهم الأساتذة الذين يقربون ما بين الجمال والحق وبين الدين . . ولقد كان الشعراء فى العصور التى خلت يسمون بالمشرعين أو الأنبياء ، والشاعر فى الأصل يجمع بين هاتين الصفتين» .

وقد يرى بعض الناس أن هذا الشاعر الكبير المدافع عن إخوانه الشعراء قد أعطاهم أكثر من حقهم ، وغالى بقيمتهم ليرفعهم ويرتفع بهم ، ولكنى أرى أن قليلين من الناس يشكون فى أن الأدب بوجه عام فى طليعة عوامل تهذيب النفوس ، وتوطيد الحضارة ، وتأكيد القيم الإنسانية ، والغريب مع ذلك أن الصداقات العظيمة ، أو على الأقل الصداقات الطويلة الأمد فى حياة كبار الشعراء أساتذة الإنسانية وهداتها ، كما يؤكد لنا شلى فى رسالته ، قليلة نادرة .

وكثيراً ما تذكرنا علاقات الشعراء ، بعضهم ببعض ، فى مختلف الأمم وشتى العصور ، بما نقله الجاحظ فى رسالته «أخلاق الكتاب» عن أبى عباد ثابت بن يحيى ، وهو قوله فى وصف تقاطع الكتاب وهو يخاطبهم : «معاشر الكتاب ، لا أعلم أهل صناعة أملأ لقلوب العامة منكم ، ولا النعم على قوم أظهر منها عليكم ، ثم إنكم فى غاية التقاطع عند الاحتياج ، وفى ذروة الزهد فى

التعاطف عند الاختلال . . وإنكم لتتناكرون عند الاجتماع والتعارف تناكر الضباب والسلاحف» .

وربما كان السبب فى ذلك أن الشعراء ليسوا أوسع الناس خيالاً فحسب ، وإنما أيضاً أشدهم توتر إحساس ، ولذلك كثيراً ما يشتهرون بسرعة الغضب ، وشدة الغيرة ، وما يتبع ذلك من احتدام المنافسة ، واشتداد الخلاف ، وتأريث العداوة ، والإصرار على القطيعة .

من أجل هذا حينما يطالع الإنسان أخبار تلك الصداقة العظيمة التى نشأت بين الشاعرين الألمانيين الكبيرين جوته وشلر يجد أنه أمام حادث يستحق أن يقف الإنسان عنده ، ويتملى مشاهدته ، ويطيل النظر فى ظروفه وملابساته . ومن عجائب أمر هذه الصداقة أنها كانت بين شاعرين كبيرين من طرازين مختلفين ، وطبيعتين متناقضتين ، ولم تكن من الصداقات التى تنشأ بغتة ، وتجىء فلتة من الفلتات ، وإنما كانت من الصداقات التى تتقدم فى بطء ، وتنمو نمواً تدريجياً ، وتتوثق روابطها برغم المقاومة ، وتوفر أسباب الخلاف والمنازعة ، وكثرة دواعى التحاسد والمنافسة ، وقد أفضت إلى تعاون مستمر ، وتحاب دام حتى فرق بينهما الموت ، وقد ضربا لهذه الصداقة السامية مثلا أعلى فى التسامى فوق الصغائر والتفاهات ، والضغائن والأحقاد ، لخدمة الثقافة الحقة والأدب الرفيع ، ويقول ج. هـ. لويز فى ترجمته المشهورة لحياة جوته «[1] لا يقدم تاريخ الأدب شيئاً يعادل صداقة جوته وشلر» .

فى يوليو سنة ١٧٨٧ كان جوته قد عاد من صقلية إلى روما لدراسة ما بها من آثار ، وفى ذلك الوقت زار شلر فيمار ، وكان دوق فيمار غائباً عنها حينذاك ، ولكن كان هناك الناقد الألمانى الشهير فيلاند ، وكان مشغولاً بترجمة لوشيان إلى اللغة

(١) صفحة ٣٩٤ من كتاب «حياة جوته ومؤلفاته» طبعة الفرسمان

الألمانية ، ولكن ترك العمل فى الترجمة ليفرغ للقاء الشاعر الذى بزغ نجمه ، وعلاصيته ، وكان هناك هردر المفكر البحاثة الذى كان له تأثير بليغ فى معاصريه ، وكان هردر قد قرأ « دونكارلوس » التى ألفها شلر وأعجب بها ، ولقى شلر ترحيباً فى كل المنتديات الأدبية بفيار ، ولكنه كان شديد الحرص على لقاء الشاعر الغائب فى روما ، ذاك الذى كان شعوره نحوه يتردد بين الشك والإعجاب ، والتباعد والإقتراب .

وكان جوته فى تلك السنة قد بلغ الثامنة بعد الثلاثين ، وكان شلر يصغره بعشر سنين ، وكانت روايته المشهورة « اللصوص » قد جعلت له مكانة ملحوظة عند الشبان المتحمسين ، وبالرغم من الترحيب الذى قوبل به فى فيار من المثقفين فقد لحظ أن الطبقة الأرستقراطية فى المدينة كانت تنقصها الحماسة فى الترحيب بالشاعر الثائر .

وقد حز هذا فى نفسه ، فحاول أن يغالب ما استولى عليه من الضيق والتبرم بالإقبال على إنجاز كتابه « تاريخ ثورة الهولنديين » وكان يلقاه أينما حل فى فيار الإعجاب الشديد بجوته ، وإكبار عبقريته ، واتفق أن حل يوم ميلاد جوته ، واجتمع أصدقاؤه فى حديقة منزله ليشربوا نخبه ، وحضر الاجتماع شلر ، وشرب هو الآخر نخب الشاعر الغائب ، وكتب يقول « قل أن يخطر ببال جوته وهو فى إيطاليا أننى بين زوار داره ، ولكن القدر العجيب يجمع بين الناس من حيث لا يحتسبون » .

وكان شلر قد رأى جوته قبل ذلك ، ففى سنة ١٧٧٩ كان جوته وكارل أوجست —دوق فيار— فى مدينة ستوناجارت ، وحضرا حفلة توزيع الجوائز على طلبة الكلية الحربية ، وتقدم شاب نحيف القوام أحمر الشعر ليتسلم ثلاث جوائز ، ويقبل حاشية رداء دوق ورتمبرج ، وكان قد وقف إلى شماله الشاعر

اللامع مؤلف ورتر وحوتزفون برليجنجن وغيرها من الآثار الأدبية التى ظفرت بالإعجاب والتقدير ، وكان هذا الشاب هو شلر .

وقبل عودة جوته من إيطاليا كان شلر قد غادر فيمار إلى قرية مؤلكشتادت الصغيرة ليستطيع التجوال على شاطئ نهرها وعند سفح جبلها مع حبيبته شرلوت ، وفى ٢٧ يوليو سنة ١٧٨٨ كتب إلى صديقه كيرنر يقول « إنى شديد التطلع إلى لقاء جوته ، وإنى بوجه عام أشعر بالميل إليه ، وقليل من الناس أقدر قدرتهم تقديرى لقدرته » .

وكتب إليه بعد ذلك بقليل « لم أرجوته بعد ، ولكننا تبادلنا التحيات ، ولقد قال إنه لو كان يعلم أنه وهو فى طريقه إلى فيمار سيكون على مقربة منى لزارنى ، ولقد كان على بعد ثلاثة أميال من المكان الذى أقيم به ، وقد سمعت أنه اعتزل الحياة العملية » .

وفى شهر سبتمبر من السنة نفسها تحققت أمنية شلر ، ففى رونشتادت ، بمنزل السيدة فون يستخفيلد — التى أصبحت حماته فيما بعد — ظفر باللقاء المطلوب ، وكان بين حاضرات الاجتماع شرلوت وشقيقتها كارولين ، وزوجة هردر ، والسيدة فون ستاين صديقة جوته ، ولم يلهم هذا اللقاء شلر تلك الرغبة القوية فى أن يتقدم من المعرفة السطحية إلى عقد صلات الود والصداقة الحقيقية ، ولم يكن هناك فتور ولا تكلف من أحد الطرفين ، فقد كان جوته فى أحسن حالاته ، وتحدث طويلاً عن رحلته فى إيطاليا وعادات أهلها وآدابهم ، ولكن بدا لشلر أن حركاته لا تخلو من الصلابة ، وأن محياه لا ينم على الصراحة ، وأن وميض عينيه يجتذب النظر ، وأن صوته فى الحديث حسن الوقع فى النفس ، ولكن شدة إقبال السيدات عليه ، وتجمعهن حوله لم يتيحا الفرصة لشلر ليتحدث إليه منفرداً .

وقد كان شلر جد مشتاق إلى هذا اللقاء وقد تفضلت به الأيام ، ولكنه لم يسفر عن شيء ، وأسف شلر لذلك ، فكتب إلى صديقه كيرنر يقول «أستطيع أخيراً أن أحدثك عن جوته ، إن رؤيته لأول مرة جعلتنى أقلل كثيراً من تقديرى الكبير الذى حملنى عليه حديث الناس عن جاذبية صوته وجمالها ، وهو متوسط الطول ، ومنتصب القامة حتى عندما يكون ماشياً ، ويبدو متحفظاً بالرغم من أن عينيه قويتا التعبير ، وهما يدلان على وفرة النشاط والحيوية ، ويتابعها الإنسان فى سرور وارتياح ، وهو يلتزم الجد الصارم ، ومع ذلك يظهر الكثير من حب الخير وطيبة النفس ، وسرعان ما تعارفنا ، ولم تعترض ذلك عقبات ، ولقد كان الجمع حافلاً ، وكان الحاضرون حريصين على الاستئثار به وشغل وقته ، فلم تتح لى فرصة الانفراد به أو التحدث معه فى غير الأحاديث العادية ، ولست أدرى هل تقوى أواصر الود بينى وبينه أولا ، إنه مر بتجارب كثيرة لا يزال يهمنى أمرها ، ولا أزال فى مرحلة الرغبة فيها وتوقع مثلها ، وقد تقدمنى كثيراً حتى لأحسب أن طريقينا لا يمكن أن يتقاطعا ثانياً ، وعالمه ليس عالمى ، وطرقنا فى النظر إلى الأشياء جد مختلفة . . وسيكشف الزمن عما وراء ذلك ، فإنه ليس من الميسور إستخراج نتيجة نهائية من أمثال هذا اللقاء القصير» .

وقد وضح جيتى لماذا لم يكن من الميسور فى هذه الفترة أن تنشأ علاقات طيبة بينه وبين شلر ، فقد عاد من إيطاليا وقد كون لنفسه رأياً فى الفن جعله ينظر بشيء من الازدراء إلى الحركة التى كان هو نفسه أحد قادتها ، حركة العاصفة والثورة ، وأصبح شلر أخيراً رافع علمها فى رواياته التمثيلية ، وقد صار جوته يمقت هذه المرحلة التى مر بها وتجاوزها وتغلب عليها ، مرحلة السخط والثورة ، ولم يكن شلر قد اجتازها بعد ، ولذلك كانت رواياته معبرة عن الروح المهتاجة الثائرة .

أما من ناحية شلر فإنه حينما قرأ مسرحية «إيجمونت» لجوته فإنه شعر بأنه قد قذف به من حالق ، فقد تناول فيها جوته حياة بطل من أبطال التاريخ يصلح لأن يكون موضوعاً دراميًّا لو أن شلر تناوله لسما به وجعله إنساناً مثاليًّا ، ولكن جوته فى مسرحيته جعله فارساً فى دسيسة من دسائس الحب ، وهبط به من عليائه ، وأذاع شلر نقده للمسرحية ، ورأى جوته أن هذا النقد يدل على أن كاتبه أعرف بالأخلاق والسياسة منه بالشعر الحق والأدب الخالص ، وسعى جوته لإلحاق شلر بوظيفة أستاذ التاريخ فى جامعة ينا .

وتم هذا التعيين ، ولعل جوته قد اعتقد أنه بسعيه فى إسناد هذه الوظيفة إلى الشاعر الشاب المتحمس قد أدى له خدمة أدبية أكثر منها مادية ، وأنه سيساعد بذلك على أن يخلق من الشاعر الفج أستاذاً للتاريخ صالحاً .

وأدرك شلر أنه قد ظهر لجوته فى مظهر الثائر الخارج على الأوضاع ، وقد اجتذبت مسرحية «دون كارلوس» الأنظار ، ولكن جوته وحده زوى عنها بصره ، ولم يشر إليها بكلمة ، وفى يوم ٢ فبراير سنة ١٧٨٩ كتب شلر إلى صاحبه كيرنر يقول : «يحزننى الإكثار من لقاء جوته ، فهو لا يفتح قلبه حتى لأقرب أصدقائه إليه ، ولا شيء يجتذبه ، وأعتقد أنه أنانى إلى أقصى حد ، وقد رزق القدرة على جعل الناس مدينين له بالمجاملات الصغيرة والكبيرة معاً ، ولكنه يتحرى دائماً أن يظل مالكاً حريته ، وهو يجعل الناس يعرفونه بما يسدى إليهم من جميل الصنع وهو فى ترفع الإله وتساميه ، ويبدو لى أن هذا الأسلوب فى السلوك خطة موضوعة يرضى بها عن قصد حبه لذاته ، ويجمل بالناس ألا يحتملوا القرب من كائن على هذه الشاكلة ، ومن ثم هو يبغيض إلىّ ، وذلك بالرغم من أنى أحب عقله أشد الحب ، وأقدر شخصه تقديراً عالياً . . ولقد أثار فى نفسى مزيجاً من البغضاء والحب ، وشعوراً قد لا يختلف عن الشعور الذى أثاره

يوليوس قيصر فى نفس بروتس وكاسيوس ، وقد أقتل روحه وأحبه بعد ذلك من أعماق نفسى» .

وواضح من هذه الرسالة أن شلر فى تلك الفترة كان فى حيرة من أمر جوته ، وكان شديد الشعور بما كان بينهما من بون شاسع ، وكان يريد أن ينقض عن نفسه غبار هذا الشعور بالهزيمة ، ومما كتبه فى تلك الفترة معبراً فيه عن يأسه : «هذا الرجل ، هذا الجوته عقبة كأداء فى طريقى ، وهو يذكرنى على الدوام بقسوة القدر معى ، لقد ترفق القدر بعبقريته ، وأنا لا أزال فى كفاح ! ولا أستطيع أن أستعيد كل ما فقدت ولا يستطيع الإنسان بعد الثلاثين أن يعبد تكوين نفسه . . ولكنى أشد من عزمى ، وأعلق أملى على ثورة سعيدة فى المستقبل» .

وقد سطر شلر هذه الكلمات فى ربيع سنة ١٧٨٩ ومضى على هذا خمس سنوات لم يتغير فيها الموقف ، ولم تتحسن العلاقات بين الرجلين ، وقد عاد جوته من إيطاليا مكوناً رأياً جديداً فى الفن ، ولم يجد ما يحمله على تغيير هذا الرأى وسلوك سبيل آخر غير السبيل الذى آثر السير فيه ، ورفع عن كاهله الأعباء المختلفة ، وعقد العزم على ألا يجشم نفسه عملاً لا يلائم رغبته ، وبالرغم من أن جوته كان لا يزال يزود أمير فيمار بنصائحه وتوجيهاته فإن ظهوره فى المجلس الاستشارى قل ، وقطع علاقته بصديقته السيدة فون ستاين ، وازدادت عزلته فى داره ، ووقف من تيار الحركة الأدبية السائدة حينذاك موقف المعارض ، ولم يصبح الشاعر الذى تتعلق به الجماهير ويتقبل شعره بحماسة وارتياح ، ولما ظهرت مجموعة من أشعاره مطبوعة لم يقبل عليها القراء ، ولم يتحمسوا لها ، وشغل جوته نفسه بالبحوث العلمية وتاريخ الفن ، وعنى بمراقبة قوانين الطبيعة وصور النباتات ومظهر الضوء ، وخشي أصحابه أن تتوزع جهوده بين دراسة البصريات

وعلم العظام وتركيبها ووظيفتها وعلم النبات وتاريخ الفن ، فتفقده الوحدة والتماسك .

وحدثت بعد ذلك حادثة قربت ما بين الشاعرين الكبيرين المتباعدين ، فقد خرجا معاً فى وقت واحد من اجتماع لجمعية باتسن للبحوث الطبيعية ، وأخذا فى تبادل الحديث ، وأبدى شلر ملحوظته على المحاضر الذى كانا يستمعان إليه فى الجمعية قائلاً «إن مثل هذا الأسلوب الجزئى الذى أتبعه المحاضر فى تناول الطبيعة لا يعنى به من الحاضرين سوى فريق المتخصصين» .

وقد مس شلر بهذه الملحوظة التى أبداها صميم طريقة جوته فى تصور الطبيعة الخارجية ، ورد جوته على ملحوظته قائلاً : «قد يكون هناك أسلوب آخر فى تمثل الطبيعة غير مجزأة ولا مقطعة الأوصال ، وإنما وهى حية ناشطة وجاهدة فى إخراج أجزاء منوعة من الكلى المجتمع» وجعله ذلك يسترسل فى الحديث عن نظريته فى تحول النباتات ، وأفضى بهما السير إلى باب منزل شلر ، فدخل جوته مع شلر ، وتناول قلماً ، وأخذ يرسم صورة رمزية تمثل كيف ينمو النبات .

وأصغى شلر إلى حديث جوته بانتباه شديد ، وراقبه وهو يتحدث فى عطف ورعاية ، ولكن حينما أتم جوته حديثه هز شلر رأسه وقال : «ليس هذا حقيقة تجريبية ، إنها فكرة» وساء ذلك جوته ، لأن هذه الملاحظة أظهرت وجه الخلاف بين عقلية الرجلين ، وكاد يعود الخلاف بينهما إلى سابق عهده ، ولكن جوته حاول كبح جماح نفسه ومغالبة غضبه ، وأجاب قائلاً : «هذا شىء عظيم ؟ وجميل أن يكون عندى أفكار دون أن أدرى ذلك ، وأن أرى هذه الأفكار بعينى رأسى !

والعجيب أنه فى وقت ظهور هذا التناقض بين طبيعة الرجلين بدأت تتوطد صداقتهما الحقة ! فجوته كان يتأمل النبات الحقيقى ، ويوازن بين أنواعه ،

واعتقد بعد إمعانه فى هذه المشاهدة أنه قد استطاع أن يتكهن ، بل أن يرى بوضوح الصورة المرئية التى يحاول النبات أن يظهر بها ، ولكن شلر الذى كان رأيه أن يبدأ من «الفكرة» ويشرع فى جعل المواد التى يجمعها عن الشخصيات التى يريد خلقها ملائمة للفكرة التى بدأ بها ، وأراد أن يبسطها بدا له أن جوته يتتبع الأسلوب نفسه ، وأنه قد استعان بعقله وخياله على جعل أوراق النبات الحقيقى وأزهاره ملائمة لهذه الصورة التى كونها فى بادئ الأمر.

وقد وقعت هذه الحادثة فى وقت مناسب ، وذلك أن شلر كان قد عرف فى العام السابق الناشر كوتا ، وكان كوتا يفكر فى إنشاء صحيفة سياسية ، ورأى أن يختار شلر ليتولى الإشراف على تحريرها لفرط اهتمامه بالتاريخ والسياسة ، ووجد شلر أن صحته لا تسمح له بالاضطلاع بهذا العبء ، فاقترح على كوتا فكرة إنشاء مجلة شهرية بدلاً من الصحيفة اليومية ، وقبل كوتا هذا الاقتراح ، واختار شلر اسم «رى هورن» لتلك المجلة ، ووافق كوتا على الاسم ، ودعا شلر كبار رجال الفكر فى ألمانيا للمشاركة فى تحرير المجلة .

وفى ١٣ يوليو سنة ١٧٩٤ أرسل شلر إلى جوته بياناً عن المجلة المذكورة ، وعرض عليه مشاركته فى تحريرها ، وبعد عشرة أيام من إرسال البيان إليه تلقى منه شلر ما يفيد قبوله المشاركة المطلوبة ، وتلقى منه شلر بعد ذلك رسالة أخرى يقول فيها إنه يسره أن يتبادل معه الآراء ، وكان لهذا التلطف والتشجيع من الشاعر الكبير المعروف بترفعه وشموخه وقع جميل فى نفس شلر.

وبدأت أوامر الصداقة تقوى بينهما ، وأخذ جوته يكثير من التردد على مدينة ينا ، وكثر تلاقى الشاعر المثالى المتحمس شلر بالشاعر الذى كثرت تجاربه فى الحياة العملية وعرف بنزعته الأبيقورية ، وكانا فى اجتماعهما يتناقشان ويبحثان بعض المشكلات الفلسفية ، وكان شلر مزوداً بثقافة لا بأس بها ، أما فلسفة جوته

فكانت لوناً غامضاً من ألوان مذهب وحدة الوجود مستمدًّا من ملاحظاته للطبيعة من الناحية العلمية ومن الناحية الشعرية ، ولذلك كان من السهل على شلر أن يتغلب على جوته فى النقاش ويفند حججه ، ولكن جوته كان يستطيع بعد ذلك أن يفلت من شباك المناقشة ، ويحتفظ بحرية تفكيره ، ولم يكن التفوق فى المناقشة والمحاجة هى ميزة شلر الوحيدة ، فقد ظهر لجوته أن صاحبة « المثالى » يفوقه كذلك فى معاملة الناس وتدبير أمورهم ، كان جوته أعمق منه حكمة ، ولكن فى معالجة المشكلات المعارضة كان شلر أبرع أسلوباً وأوسع حيلة وأقدر على الخروج من المآزق ، أما جوته فكان يقبل الأشياء كما هى فى شيء من التهاون .

وافترق الشاعران صديقين فى يوليو سنة ١٧٩٤ ، وبدأ تبادل الرسائل بينهما ، واستمر هذا التراسل بغير انقطاع حتى وفاة شلر فى مايو سنة ١٨٠٥ وكان مجموع سنوات التعاون بين هذين الشاعرين الكبيرين عشر سنوات ، وهى تعد السنوات الحافلة فى حياة شلر القصيرة ، وقد أخرج شلر فى خلالها مجموعة من خير رواياته التمثيلية مثل « ولنستاين » و « مارى ستيوارت » و « عذراء أورليان » و « عروس سينا » و « وليام تل » وملاحمه الشعرية وقصائده الغنائية الأخيرة ، وحسن رأيه فى صديقه جوته فكتب إلى الكونتس شميلمان فى سنة ١٨٠٠ يقول عن جوته : « ليست صفات عقله النبيلة هى التى تجعلنى حريصاً على صداقته ، إنه إذا لم يكن له أسمى قيمة فى نظرى باعتباره إنساناً تعلمت أن أعرفه شخصيًّا لكنت أعجبت بعبقريته من بعيد ، وأستطيع أن أقول بحق إنى فى السنوات الست التى عشتها على مقربة منه ، وفى اتصال وثيق به ، لم أخطئ قط فى تفهم أخلاقه ، ففى طبيعته استقامة وحب للحق مع أشد تعلق بكل ما هو صادق وصالح » وتكشفت طبيعة جوته وسمو ملكاته ، فكتب إليه من رسالة يقول : « إن طريقتك الهادئة الواضحة فى النظر إلى الأشياء صانتك عن الخطل الذى يقودنا

إليه تفكيرنا المتعسف، أو خيالنا الجامح ، وحدسك المباشر يحيط بالأشياء فى تمامها إحاطة يبذل التحليل جهده فى سبيلها ، وكل هذا قد تيسر لك واجتمع فيك ، وهذه الثروة العقلية مخبأة عنك لأننا للأسف طبعنا على أن لا نرى إلا الأشياء المجزأة . . وإنك لتنظر إلى الطبيعة فى كليتها الشاملة لكى تحصل على الضوء الذى ينير أجزاءها المعينة » .

وبهذه الرسالة التى ذكرت بعض عباراتها بدأ شلر سلسلة الرسائل القيمة التى كان يكتبها لجوته ويحاول فيها فهم عقلية صديقه ، وقد كان شلر بطبيعته ميالاً إلى النظريات المحبوكة الأطراف والبحوث الفلسفية ، أما جوته فكان أوسع مجالاً وأنفذ بصيرة ، والرسائل التى تبودلت بينهما ليست من نوع الرسائل الهينة اللينة التى يقرؤها الإنسان فى أوقات الاسترخاء ليتسلى بها ويستدعى بها النوم المريح ، وإنما هى من الرسائل التى تطالب قارئها بالصبر والجلد وإعمال الفكر ، وتقتضى الإلمام بأعمال الشاعرين ، وتلقى ضوءاً باهراً عليها .

وكان جوته يفيض فى رده على رسائل صديقه ، فحينما بلغ الخامسة بعد الأربعين كتب إلى شلر يقول له إنه بعد الأيام الأولى لبدء توثق العلاقات بينهما بدء عهد جديد فى حياته ، وإنه مما يدخل السرور على نفسه أن التعاون بينهما جاء بطريقة طبيعية لا تكلف فيها «لأنه بعد هذا اللقاء غير المنتظر بدا لى أننا لا نستطيع إلا أن نسير معاً جنباً إلى جنب» .

وإستمر التعاون الأدبى بينهما بغير انقطاع مع احتفاظ كل منهما بمقومات شخصيته واستقلال تفكيره ، وكان لهذا التعاون تأثير بعيد المدى فى حياتهما ، وقد أصبح شلر بعد تعاونه مع جوته شلراً جديداً قد أضيفت إليه قوة مستمدة من جوته ، كما أصبح جوته كذلك جوته جديداً مضافاً إليه قوة مستمدة من شلر ، وفتحت لهما هذه الصداقة آفاقاً واسعة فى التجارب الفكرية والسبق إلى دنى

جديدة فى عالم الخيال والخلق لأدبى ، وكان أساس الإتفاق بينهما أن يظل كل واحد منهما محتفظاً بفرديته ، وفى الوقت نفسه يفيد من الآخر ما ينقص ويكمل طبيعته .

وقد كتب شلر فى ١٢ أغسطس سنة ١٧٩٦ إلى جوته يقول « إن التغير الذى أدخله تأثيرك الشخصى على نفسى أشعر بأنه عظيم باهر ، وبالرغم من أن جوهر نفس الإنسان وطبيعة ملكاته لا يمكن أن يتغيرا ، فإننى أشعر بأنهما قد صقلا وازداد صفاء » .

وكتب إليه جوته فى ٦ يناير سنة ١٧٩٨ يقول « إذا كنت قد أفدت من نظرتى الموضوعية للأشياء ، فإنك قد أعدتنى إلى نفسى بعد أن كدت أقتصر على ملاحظة الأشياء الخارجية وتأمل علاقاتها بعضها ببعض . . لقد وهبتنى شباباً ثانياً ، وجعلتنى شاعراً مرة أخرى بعد أن كدت أفقد شاعريتى » .

وقد كانت الأهداف الثلاثة التى رمى الشاعران الكبيران إلى تحقيقها بتعاونهما هى رفع مستوى الذوق الأدبى للشعب الألمانى وتوجيهه الوجهة الصالحة ، وتمزيق شمل القوى التى تعمل على إفساد الذوق والهبوط بالمستوى الثقافى ، وإثراء الأدب الألمانى بتقديم نماذج من الأدب الممتاز ذى المستوى العالى ، ذلك الأدب الذى يحمل طابع البقاء ، وكان شلر يعرض مؤلفاته على جوته ويسره أن يستمع إلى ما يبديه صديقه من الملاحظات والنقد ، أما جوته فكان قليلاً ما يفعل ذلك ، فقد كان يؤثر أن تستكمل مؤلفاته تكوينها فى صمت وخفاء بعيدة عن المناقشات والملاحظات مثل إنتاجات الطبيعة .

وقد لوحظ أن شلر يكشف نفسه فى مؤلفاته ، أما جوته فإنه كان يخلق شخصياته على طريقة شكسبير ، وحقيقة أن مؤلفاته سلسلة من الاعترافات نابعة من أعماق حياته ، ولكنك مع ذلك لا تستطيع أن نتبين من خلال تصويره

لشخصياته ما يحبه وما يكره ، ولم يقم هذا الاختلاف فى طبيعة الشاعرين عقبات فى سبيل تعاونهما ، وربما كانت هناك عقبات ، ولكنهما استطاعا بطريق هذا التعاون المثمر المتغلب عليها .

وقد كتب جوته فى إبان ازدهار هذه الصداقة روايته هرمن ودورثية ، وأحسن أجزاء هيلينا ، كما نظم الكثير من قصائده الغنائية الخالدة .

وفى اليوم التاسع من شهر مايو سنة ١٨٠٥ مات شلر ، ولكن لم تنته بموته الصداقة بينه وبين جوته ، وكانت خسارة جوته كبيرة بفقد صديقه ، ولكن هذا الصديق الراحل ظل حيًّا فى نفس جوته ، فإنه لم يعرف رجلاً كان أقرب إلى نفسه منه ، والحياة الجديدة التى بعثتها فى نفسه تلك الصداقة لم تذهب بذهاب الصديق الذى ترك عالم الدثور والغناء إلى عالم الخلود والبقاء ، وقد كانت حياة شلر المثمرة الجريئة الصافية السامية جديرة بأن تكون مصدر وحى ، وباعث إلهام ، لجوته وللشعب الألمانى وللإنسانية قاطبة .

بين تولستوى وأبى العلاء المعرى

(١)

فى اليوم السابع من شهر نوفمبر سنة ١٩١٠ نعت الأسلاك البرقية نبأ وفاة الكاتب الروسى الكبير ليوتولستوى ، فكان لنعيه دوى فى مختلف الأقطار ، وأثر بليغ فى النفوس ، وقد وصل تولستوى قبل موته إلى قمة الشهرة العالمية ، ونقلت مؤلفاته إلى لغات عدة ، وذاعت آراؤه الحرة الجريئة فى جميع الأنحاء ، وأعجب القراء المستنيرون بأدبه الساحر الخلاب ، وشغل النقاد بتحليل فنه المعجز ، وآرائه الطريفة ، سواء فى الأدب أو الدين أو الاجتماع أو التربية أو السياسة وكل ما يمت إلى الحياة الإنسانية بسبب ، وكانت خاتمة حياته الخصبة الحافلة جليلة رائعة كالميتة التى قال عنها أبو تمام فى رثاء صاحبه حميد الطوسى إنها تقوم مقام النصر لمن فاته النصر ، فقد مات تولستوى وهو يقوم بآخر محاولة لجعل حياته مطابقة لأفكاره وتعاليمه .

ولم يكن الأدب الروسى قد عرف فى مصر حينذاك المعرفة المناسبة ، ولم يكن قد نقل من كتب تولستوى إلى اللغة العربية سوى النزر اليسير ، ولكن ما عرف عن سيرة تولستوى ونبل منازعه وسامى اتجاهاته ومقاصده عطف عليه القلوب ، وجعلها تشعر بما فى فقد الأحرار كبار النفوس أمثال تولستوى من خسارة فادحة ، ولعل هذا كان فى طليعة البواعث التى هزت نفس الشاعر المصرى الكبير المرحوم أحمد شوقى من أعماقها ، فنظم فى رثاء تولستوى قصيدة تعد – فى تقديرى – من أجود قصيده وعيون شعره وأشده استحقاقاً للبقاء ، وقد أتى فيها

بلمحات بارعة عن حياة تولستوى ، ووصفها وصفاً شعريًّا معبراً ومؤثراً فى نغمة حزينة ، وألفاظ سهلة عذبة رصينة ، يسيغها الذوق ، ويرضى عنها القلب والعقل ، وقد خلت هذه القصيدة من تلك المبالغات السخيفة التى كثيراً ما يتورط فيها بعض الشعراء حينما يتصدون للرثاء ، فيتكلفون ويسرفون فى التهويل ويكثرون من التفجع ليخدعونا عن أنفسهم ، ويستروا ضعف شعورهم ، وفتور إحساسهم ، ولقد شعر شوقى وأحس وأرسل قلمه البليغ بما شعر به وأحسه . ولذا كان لشعره فى هذه القصيدة أثر فى النفس ، وصدى فى القلب ، وقد استهل القصيدة بقوله :

تولستوى تجرى اية العلم دمعها	عليك ويبكى بائس وفقير
وشعب ضعيف الركن زال نصيره	وما كل يوم للضعيف نصير
ويندب فلاحون أنت منارهم	وأنت سراج غيبوه منير
يعانون فى الأكواخ ظلماً وظلمة	ولا يملكون البث وهو يسير
تطوف كعيسى بالحنان وبالرضى	عليهم وتغشى دورهم وتزور
ويأسى عليك الدين إذ لك لبه	وللخادمين الناقمين قشور

ثم يشير شوقى إشارة خفيفة مستساغة مهذبة إلى ذلك الخلاف الطويل الذى نشب بين تولستوى وبين زوجته ، وكان من الأسباب التى أقضت مضجعه ، ونقضت مرته . واستنفدت صبره ، ودفعته فى النهاية دفعاً إلى أن يفر من منزله خلسة فى الساعة السادسة من الصباح فيقول :

ويبكيك ألف فوق ليلى ندامة	غداة مشى « بالعامرى » سرير

ثم يمضى بعد ذلك فى وصف لقاء تولستوى للمعرى فى عالم الخلود وبين جمع الأفذاذ العبقريين الذين يفخر بهم بطن حواء ويباهى بهم بطن الأرض فيقول :

إذا أنت جاورت المعرى فى الثرى وجاور « رضوى » فى التراب « ثبير »
فقل ياحكيم الدهر حدث عن البلى فأنت عليم بالحياة خبير
أحطت من الموتى قديماً وحادثاً بما لم يحصل منكر ونكير
طوانا الذى يطوى السموات فى غد وينشر بعد الطى وهو قدير
تقادم عهدانا على الموت واستوى طويل زمان فى البلى وقصير
نظرنا بنور الموت كل حقيقة وكنا كلانا فى الحياة ضرير

ويطمئن تولستوى إلى صاحبه المعرى فيسترسل فى الاعتراف قائلاً كما يروى لنا شوقى :

إليك اعترافى لا لقس وكاهن ونجواى بعد الله وهو غفور
فزهدك لم ينكره فى الأرض عارف ولا متعال فى السماء كبير
سلكت سبيل المترفين ولذلى بنون ومال والحياة غرور
أداة شتائى الدفء فى ظل شاهق وعدة صيفى جنة وغدير
ومتعت بالدنيا ثمانين حجة ونضر أيامى غنى وحبور
صباً ونعيم بين أهل وموطن ولذات دنيا كل ذاك نزور

ويمضى تولستوى فى حديثه مع المعرى :

تسائلنى هل غير الناس ما بهم وهل حدثت بعد الأمور أمور

وأرجح أن هذا الاستفهام من ناحية أبى العلاء كان من قبيل الاستفهام الإنكارى ، لأن أبا العلاء كان يائساً من الطبيعة الإنسانية فى صميمها وفى مختلف عصورها سواء الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، وهو شديد الإنكار لفكرة التقدم !

وهل آثر الإحسان والرفق عالم دواعى الأذى والشر فيه كثير
وهل سلكوا سبل المحبة بينهم كما يتصافى أسرة وعشير

وهل آن من أهل الكتاب تسامح خليق بآداب الكتاب جدير
وهل عالج الأحياء بؤساً وشقوة وقل فساد بينهم وشرور
قم انظر وأنت المالئُ الأرض حكمة أأجدى نظيم أم أفاد نثير
أناس كما تدرى ودنيا بحالها ودهر رخىٌّ تارة وعسير
وأحوال خلق غابر متجدد تشابه فيها أول وأخير
تمر تباعاً فى الحياة كأنها ملاعب لا ترخى لهن ستور
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى وغش وإفك فى الحياة وزور

ولست أشك فى أن أبا العلاء كان ينتظر مثل هذا الجواب اليائس الصريح ، وقد اعتزل أبو العلاء فى النصف الثانى من حياته شئون الدنيا ، وودع الآمال ونفض يده منها ، وعاش ليصف شرور الحياة ، ويدلل على سخافتها وتفاهتها ، أما تولستوى فبعد أن لفه اليأس فى أثناء ظلمته حاول أن يلعب دور المصلح الذى يقوِّم الاعوجاج ، ويبشر بالمبادئ السامية ، ويحمل الناس على الاقتناع بالأخذ بها ، ولكنه أخفق فى محاولته ، وعجز عن إقناع ألصق الناس به ، وأقربهم إليه ، ومات وهو يبذل آخر جهوده ليكون القدوة الصالحة فى الملاءمة بين القول والعمل ، والكلمات التى أجراها شوقى على لسانه مناسبة فى التعبير عما كان يشعر به تولستوى فى أعماق نفسه من مرارة التقصير فى النهوض بالواجب ، والعجز عن الإصلاح ، واليأس من البشر والطبيعة الإنسانية .

وقد اشتهر حافظ إبراهيم بإجادة الرثاء والتبريز فيه والإكثار منه حتى قال فى أخريات حياته :

إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

فلما أذاع شوقى قصيدته فى رثاء تولستوى أتبعها حافظ بقصيدة من البحر والقافية فى الموضوع نفسه ، ولحافظ فى الرثاء قصائد بديعة مؤثرة مثل رثائه

لأستاذه الإمام محمد عبده وصديقه محمد المويلحي مؤلف « حديث عيسى بن هشام » ولكنه حينما حاول رثاء تولستوى لم يرتفع فى رأيى إلى مستوى شوقى ، وقصر عن مداه ، وقد بدأ قصيدته بهذه الأبيات التى لم تكن تبشر بأنه سيجيد الرثاء ، وكأنه كان يعتذر بها مقدماً عن التقصير :

رثاك أمير الشعر فى مصر وانبرى　　لمدحك من كتاب مصر كبير
ولست أبالى حين أرثيك بعده　　إذا قيل عنى قد رثاه صغير
فقد كنت عوضاً للضعيف وإننى　　ضعيف ومالى فى الحياة نصير

وقد ظلم حافظ نفسه بهذه الأبيات التى تنم على شىء من الضعف وعدم الثقة بالنفس ، وكفاح حافظ طوال حياته يدل على أنه كان أصلب عوداً ، وأقوى منة من ذلك ، وهو فى هذا الموقف يذكرنى بقول المتنبى :

عجبت لمن لـه قد وحـد　　وينبو نبـوة القضم الكهام

وأتبع ذلك ببيت فارقه فيه التوفيق وجانبته مراعاة الظروف المناسبة والملابسات الواضحة ، وهو قوله :

ولست أبالى حين أرثيك للورى　　حوتك جنان أم حواك سعير

فالإشارة إلى الجنة والسعير هنا لم يكن لها موضع على الإطلاق ، وقد تحاشاها شوقى ببصيرته النافذة ، وحسه المرهف ، وذوقه المصفى .

واقتفى حافظ آثار شوقى فى قصيدته ، فتخيل زيارة تولستوى للمعرى فى حفرته ، وبدا له أن يوصى تولستوى باتباع شىء من أصول « البروتوكول » فى هذه الزيارة ، فقال :

إذا زرت رهن المحبسين بحفرة　　بها الزهد ثاو والذكاء ستير
وأبصرت أنس الزهد فى وحشة البلى　　وشاهدت وجه الشيخ وهو منير
وأيقنت أن الدين لله وحده　　وأن قبـور الزاهدين قصور

فقف ثم سلم واحتشم إن شيخنا   مهيب على رغم الفناء وقور

ولم يكن لهذه الوصية ما يسوغها ، فمثل تولستوى فى سمو عبقريته ، وجلالة شأنه لم يكن فى حاجة لأن يتلقى مثل هذه النصائح ، وهو أعرف بها من غيره وأدرى .

ويسترسل حافظ فى مخاطبة تولستوى قائلاً :

يخبرك الأعمى وإن كنت مبصراً   بما لم تخبر أحرف وسطور

ولست أقول فى هذا البيت أكثر من أنه هفوة من هفوات الشعراء ، وللشعراء حتى الكبار أمثال هذه الهفوة ، وهى تذكرنى بسقطة المتنبى وهو يمدح سيف الدولة ، وسيف الدولة حاضر يستمع إلى القصيدة ويعجب بأبياتها ، فإذا المتنبى يصك سمعه بهذا البيت العجيب :

فلا تبلغاه ما أقول فإنه   شجاع متى تذكر له الحرب يشنق

ويبدو من خلال قصيدة حافظ أن معلوماته عن حياة تولستوى كانت على قلتها غير دقيقة ، فهو يقول :

كأنى بسمع الغيب أسمع كل ما   يجيب به أستاذنا ويحير

يناديك أهلاً بالذى عاش عيشنا   ومات ولم يدرج إليه غرور

قضيت حياة ملؤها البر والتقى   فأنت بأجر المتقين جدير

والواقع أن تولستوى لم يقض حياة ملؤها البر والتقى ، والذين قرأوا اعترافاته يعرفون عنه غير ذلك ، وقد يكون تولستوى قد بالغ بعض المبالغة فى ذكر أخطائه وعيوبه ، ولكن ليس هناك ما يدعو إلى أن نكون ملكيين أكثر من الملك ، فندعى له أن حياته كانت خالصة من الشوائب ، نقية من العيوب والمآخذ ، بل لعل هذه العيوب التى جاهدها جهاداً عنيفاً وقاومها مقاومة مستمرة من أسباب عطفنا عليه وتقديرنا لموقفه .

ثم يلقى بعد ذلك حافظ على لسان أبى العلاء هذه الأبيات الحكيمة ، وهى من خير ما فى القصيدة وأبلغه وأصدقه :

حياة الورى حرب وأنت تريدها سلاماً وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تناحراً وكدحا ولو أن البقاء يسير
تحاول رفع الشر والشر واقع وتطلب محض الخير وهو عسير

وإلى هنا يبدع حافظ فى تصوير موقف أبى العلاء ، ولكنه يتبع ذلك بأبيات حكيمة حسنة السبك جيدة النظم ، غير أنها تخالف روح الفلسفة العلائية ، وهى قوله عن لسان أبى العلاء :

ولولا امتزاج الشر بالخير لم يقم دليل على أن الإله قدير
ولم يبعث الله النبيين للهدى ولم يتطلع للسرير أمير
ولم يعشق العلياء حر ولم يسد كريم ولم يرج الثراء فقير
ولو كان فينا الخير محضاً لما دعا إلى الله داع أو تبلج نور
ولا قيل هذا فيلسوف موفق ولا قيل هذا عالم وخبير
فكم فى طريق الشر خير ونعمة وكم فى طريق الطيبات شرور

ومن الغريب أن أبا العلاء المعرى الذى عزا إليه حافظ إرسال هذه الحكم ، وألهمه النطق بهذه الحجج كان فى حاجة ماسة إلى أن يوجه إليه مثل هذا الكلام بدلاً من أن يروى على لسانه ، فأبو العلاء رجل متشكك إلى أقصى حدود التشكك ، وليس هناك ما يدعو إلى أن نغالط أنفسنا فى ذلك ، وأبو العلاء صريح فى إيثار العدم على الوجود واعتقاده بغلبة الشر على الخير ، ولو أنه كان يرى فى طريق الشر خيراً لما أمعن فى التشاؤم ولما يئس من الإصلاح والصلاح ، ولما سلق الناس والدنيا بلسانه الحاد ونقده اللاذع .

ويسترسل حافظ بعد ذلك فى قصيدته ويقول عن لسان المعرى مخاطباً تولستوى :

ألم تر أنى قمت قبلك داعياً إلى الرشد لا يأوى إلى ظهير
أطاعوا أبيقوراً وســـقراط قبله وخولفت فيما أرتئى وأشير

ولست أدرى لم زج حافظ باسم سقراط هنا ، ومن الجائز أن أبا العلاء يأخذ على الناس خطأهم فى فهم فلسفة أبيقور وظنهم أنها تدعو إلى الإباحة والانهماك فى المتعة ، ولكن ما شأن سقراط الذى كان يدعو إلى تحكيم العقل والاعتماد عليه مثل أبى العلاء نفسه ؟ لقد ظلم سقراط فى عصره وأساء إليه أهل زمنه حتى آثر أن يتعاطى السم ليفارق وجوههم ، ويستريح من جهلهم وحماقتهم ، فما كان أجدره من حافظ بالإنصاف لولا سوء الحظ .

ويختم حافظ قصيدته بهذه الأبيات الصادقة الموفقة الجيدة :

أفاض كلانا فى النصيحة جاهداً ومات كلانا والقلوب صخور
فكم قيل عن كهف المساكين باطل وكم قيل عن شيخ المعرة زور
وما صد عن فعل الأذى قول مرسل وما راع مفتون الحياة نذير

وواضح من هاتين القصيدتين أن الشاعرين الكبيرين قد أدركا بصادق حسيهما وزكاء خاطريهما بعض أوجه الشبه بين المعرى وتولستوى ، وأدار عليها قصيدتيهما ، ولعل أهم ما استرعى نظريهما إلى ذلك هو محاولة هذين الرجلين العظيمين الخالدين التوفيق بين القول والعمل ، وقد نجح أبو العلاء فى ذلك نجاحاً قليل النظير فى تاريخ الأدب ، أما تولستوى فبرغم ما بذل من جهد وما قام به من محاولات فإن ظروفه الخاصة لم تمكنه من ذلك التمكين الذى كان يتطلع إلى تحقيقه ، وكان هذا العجز هو مأساة حياته ، وعلة شقائه ، ومسعر الحرب الداخلية فى نفسه التى قاسى شدتها وصلى نارها .

بين تولستوى وأبى العلاء المعرى

(٢)

ولد تولستوى فى أسرة عريقة مكثرة مثرية ، ونشأ قوى البنية ، موفور العافية ، متدفق الحيوية ، مشبوب الحسية ، وتزوج المرأة التى حسنت فى عينه ، وصبت إليها نفسه ، وولدت له ثلاثة عشر طفلاً ، وتوالت آياته الفنية الشائعة ، وذاعت شهرته فى الخافقين ، وتضاعفت ثروته ، ونال أقصى ما يترامى إليه الأمل من الجاه والشهرة والمال والحب والمتعة ، فماذا يطلب بعد ذلك ؟ لقد كان من فرط ما أغدق عليه الحظ يصحب الدنيا بلا أمل ، ولا يريد من الأيام شيئاً حتى لقد كتب فى إحدى رسائله يقول : « سعادتى لا تشوبها شائبة » ولكن ما بين عشية وضحاها تغيرت أحوال هذا الرجل السعيد المحظوظ ، فوقعت النبوة بينه وبين زوجته ؛ وطال الخلاف ، وتمادت الخصومة وتفاقمت ، وبدأ يشك فى قيمة أعماله الفنية وينتقص آثاره الأدبية ، ويتبرم بها ، ويزهد فيها ، وتولاه الهم وضاقت مقاليده فكان ينبو جنبه عن الفراش كأنما به من مسه قروح ، فيظل ساهر الطرف ، شارد الفكر ، يذرع غرفته جيئة وذهاباً ، ويجلس فى النهار إلى مكتبه ، وقد توزعته الأفكار واحتضرته الهموم ، غير مطيق للكتابة ، فماذا أصاب هذا الرجل العبقرى وحل بساحته من فادح الأرزاء وجليل الخطوب ؟ وهل أصابه مرض فجائى أو ماذا ؟ كلا لم تصبه كارثة ، ولم ينبه خطب ، وإنما راعه أن يرى لا شىء خلف كل شىء فاستحوذ عليه الشك ، وتداخله منه المقعد المقيم حتى زهد فى كل شىء ، ومل كل شىء .

كان الرجل مفرط الحسية ، وكان الدافع الجنسى قويًّا فى نفسه ، ولذلك كان يخشى المرأة ويرهب سطوتها القاهرة ، ويحذر الوقوع فى مغواتها ، وأن تقتنصه حبائلها ، ولذا كان يكره المرأة ، والنساء والموسيقى فى رأيه تثيران الحسية ، وتنبهان الجسد ، وتوقظان الفتنة النائمة ، ولقد نجح فى إخماد شهواته بعد صراع طويل وجهاد شاق ، ولكن حسيته ظلت مع ذلك مثل وحش عاد مفترس قد وضع فى الأقفاص الحديدية لتكف شره ، وتمنع عدوانه ، ولكنه متأهب للوثوب والانطلاق إذا غفل الحراس وافترص الفرصة ، وفى سورة شبابه جمحت به الشهوة حتى كادت تورده موارد التلف والبوار ، واستطاع بعد عناء أن يكبحها ، ولكن الوحش الكامن فى نفسه لا يزال حيًّا متأهباً للنزال متوثباً للعدوان ، فموقفه يشبه موقف الراهب الناسك الذى فر إلى الخلاء واعتزل الناس ليهرب من إغراءات الجسد ومغاوى الشهوة ، وقد حمل فى روايته المشهورة «كرويتزرسوناتا» على اتخاذ المرأة وسيلة للمتعة حملة شعواء ، وندد بأفانين المرأة فى الاستغواء ، وحض الرجال على أن يبذلوا جهدهم فى التزام العفة التامة ، ويخرسوا هواتف الجسد ، وتتفق فلسفة تولستوى فى هذه الناحية مع فلسفة المعرى التى استوفى بيانها فى تائيته المشهورة التى استهلها بقوله :

ترنم فى نهارك مستعيناً بذكر الله فى المترنمات

وفيها يقول أبو العلاء عن النساء :

فوارس فتنة أعلام غى لقينك بالأساور معلمات

وقد فصل أبو العلاء فى هذه القصيدة الطويلة رأيه فى المرأة وموقفه منها ، وهو يتفق فى جوهره مع رأى تولستوى ، ولو تأخر الزمن بالمعرى وقرأ رواية «كرويتزرسوناتا» لأعجب بها غاية الإعجاب ، وأقر تولستوى على ما جاء بها من الآراء والنظرات ، ولو أتيح كذلك لتولستوى أن يقرأ تائية أبى العلاء لوجدها

تعبر عما فى نفسه ، وتقرر ما يعتقده وما هدته إليه تجاربه وخبرته .

وقد وقف تولستوى أمام فكرة الموت وقفة طويلة مثل أبى العلاء الذى كان لا ينى يفكر فى الموت ويستحضر أهواله وفواجعه ، وقد كان تولستوى القوى الحس الفياض الحيوية الواشج الجذور فى عرق الثرى يرى الموت شبحاً رهيباً ، وكيف يطبق هذا الرجل المستوفز المشاعر فكرة أن حواسه ستخمد ، وأن يمينه ستشل فلا تقوى على الحركة ، وأن جسمه الذى يتدفق الدم فى عروقه سيغدو طعمة للدود حتى لا يترك منه سوى هيكل عظمى بشع مخيف ! وكان تولستوى يستولى عليه الفزع ، ويأخذه الخوف من جميع أقطاره كلما فكر فى هذا اللاشىء ، هذا العدم الأصم ، هذا السارق الذى دق شخصه فهو يسعى بلا رجل ، ويصول بلا سيف كما يقول المتنبى ، وكان يجمد الدم فى عروقه كلما خطر بباله أن هذا الموت ستعلق به أسبابه ، وتملك عنانه شطنه ، ولقد طالعته صورته وهو فى الخامسة من عمره حينما ماتت والدته وحملوه ليشاهدها وهى مسجاة على السرير ، ورأى أن هذه المخلوقة العزيزة التى كانت بالأمس جمة الحركة ، موفورة النشاط قد أصبحت جثة هامدة متصلبة الأطراف مسلوبة الحركة ، فخرج من الحجرة صارخاً باكياً تتبعه المخاوف ، وتساوره الأوهام ، ثم مات أخوه ، ومات أبوه ، وماتت عمته ، فترك موتهم فى نفسه ندوباً ، وخلف آثاراً الا تزول ، وكانت صورة العدم تلوح له من وراء الكتب والبحوث فتنغى سروره ، وتغتال صفوه ، وتستأثر بتفكيره ، وكان خوفه من الموت معادلاً لحيويته الدافقة العارمة ، فهو لا يريد الموت ، ويتعلق تعلقاً شديداً بالحياة ، ويحرص عليها ، ويود طول البقاء ، ولكنه يعلم أنه ميت ، وأن الأمر كما قال كعب بن زهير !

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول

وأكثر الناس يعقد لهم جسر بينهم وبين الموت ليسهل عليهم بلوغه ، ويهون

احتماله ، وهذا الجسر هو المرض واعتلال الصحة ، ولكن جسم تولستوى كان قويًّا أيدا لا يعرف المرض ، ولا يسرى فيه الداء ، ولا يدب فيه الضعف ، فلم يشعر بأن الناس يموتون جزءاً فجزءاً ، وعضواً فعضواً ، فأخذ يكثر من التفكير فى الموت ، ويطيل النظر فى أمره عله بذلك يألفه ويقبله ، ويروض نفسه المتأبية على احتماله ، والصبر على مواجهته ، فالاعتياد يغلب الكراهة ، ويهزم الخوف ، وقد استطاع أن يجعل الموت خدناً وصديقاً ، ويتألف وحشته ، ويوطن نفسه على قبول حقيقته ، ومات فى الخيال ميتات كثيرة ، حتى أصبح عليماً بالموت خبيراً بأحواله ، وقد وصف ذلك فى قصته البديعة «موت إيفان إيلتش» وقصته «ثلاث ميتات » وقد عمق ذلك معرفته بالحياة ، وأوسع تجاريه .

وموقف أبى العلاء من الموت ورهبته يشبه موقف تولستوى ، انظر مثلاً إلى قول أبى العلاء :

فمالى أخاف طريق الردى وذلك خير طريق سلك

يربحك من عيشة مرة ومال أضيع ومال ملك

فهو يحاول أن يهون على نفسه من طريق المنطق احتمال الموت ، والصبر على تجرع مرارته ، ويقول فى موقف آخر :

ما أطيب العيش عند قوم لو أنه كان لا يزول

ويردد هذا المعنى فيقول :

سقيا لطيب العصر لو أن الفتى بالمرغبات إلى بقاء واصل

ويقول فى استقطاع الموت :

وطريقى إلى الحمام كريه لم تهب عند هوله البهماء

والواقع أن فكرة الموت كانت كثيرة الجولان فى نفس أبى العلاء ، دائمة الدوران فى تفكيره ، وقد يبدو غريباً أن أبا العلاء الذى كان يحمل على الحياة ،

ويفتن فى تعديد عيوبها ، وإحصاء مساوئها ، يستهول فكرة الموت ، ويعدها من المساوئ التى يأخذها على الحياة ! فهل كان يأس أبى العلاء من الحياة لوناً من ألوان التطلع إلى الخلود والحنين إلى البقاء والخوف من العدم ! قد يكون ذلك وقد لا يكون فإن لغز أبى العلاء ليس من اليسير تفسيره ، ولست أدعى أنى أملك ما يسمى «مفتاح الشخصية» والنفس الإنسانية فى تقديرى شىء غامض شديد التعقيد ، وربما كان العثور على مفاتيح الشخصيات من حظ الموعودين .

وخصلة ثالثة فى فن تولستوى تجعله قريب الشبه من فن أبى العلاء على ما بينهما من اختلاف وتفاوت ، فتولستوى فى فنه البارع يعنى بوصف الحقائق ، ويتجنب الأحلام والأخيلة ، فليس فى رواياته وقصصه سبحات صوفية ، ولا تأملات مسترسلة فى الأوهام ، وإنما هى واقعية بصيرة نافذة لا يغيب عنها شىء ولم يكتب تولستوى طوال حياته شعراً لأنه كان يطلب الحق المجرد ، وكان أبوالعلاء فى فنه الشعرى مثل تولستوى فى فنه الروائى طالب حقيقة ، فهو يعرض عن الزخرف والتأنق والتجميل ، ويكتفى بتصوير الحقائق فى بساطة مستحبة ، وصراحة مباشرة قد تصل أحياناً إلى الصرامة فى تقرير الواقع وتوصيف الحوادث والآراء ، ويشعر الإنسان وهو يقرأ روايات تولستوى بأنه يعيش على الأرض ، وأنه مقدر له أن يموت ، وأنه لا يستطيع أن يتخلص من قيود الجسد وأسر الحواس ، وأنه لا يستطيع الإفلات من أغلال الظروف والملابسات ، فلا تدويم فى الفضاء ، ولا ارتفاع فى السماء ، ولا مشاهدة لعالم آخر أصفى من هذا العالم الذى نعيش به وأشف وأبقى ، فعالمه ليس فيه أحلام ولا أوهام ولا أخيلة ولا أكاذيب ، عالم قفرخال جديب ، ولا ينسى حقائق الحاضر ، ولا تغيب عند ضرورات الحياة ، فهو ينير البصيرة ، ويثير التفكير ، ولكنه لا يشعرنا بالسعادة ، ولا يدخل على نفوسنا السرور والابتهاج ، وكذلك عالم أبى العلاء ، ويعجبنى فى

هذا المقام قول الكاتب النقادة القدير ستيفان زفايج فى فصل له قيم عن تولستوى : «حينما نقرأ تولستوى نشعر بأن الشتاء قد اقترب أو أنه قد أقبلت مقدماته ، وأن الطبيعة تحتضر ، وأن الناس جميعهم مثل الحشائش النابتة ، وأن تجسيمنا الخاص للحياة البشرية العامة مشرف على الغناء القريب» .

ففن تولستوى تنقصه الموسيقية العذبة ، والإشراق المؤنس ، ولمعات الوحى وومضاته ، وحماسة اليقين وحرارته ، وهو لا يؤكد لك الحياة ، ولا يبعث فيك العزيمة ، والعالم فى نظره مسرح للموت ، والتاريخ فوضى لا معنى لها ، والناس هياكل عظمية يسترها اللحم حيناً من الزمن ، فغير عجيب أن ينتهى تولستوى إلى الفردية والفوضوية ، كما انتهى أبو العلاء إلى الفردية والاعتزال ، وتولستوى ، مثل أبى العلاء ، يلاحظ الحياة ملاحظة صارمة ، فلا تضله بيض الأمانى ، ولا تخدعه كواذب الظنون ، ولا تجتذبه جواذب الأوهام ؛ وكيف يخدع نفسه هذا الرجل الحديد البصر القوى الحس النافذ الفكر ؟ وكيف يعد الوعود الخلابة ويمنى الأمانى الحسان ويبشر ولا ينفر وهو يرى الحياة ظلاً زائلاً ، وفناءً قريباً ماثلاً ؟ فهو لا يكذب ، ولا يريد أن يكذب ، ومن ثم لا يبغت الرجاء ولا الآمال الحسان المشرقة ، وكذلك عاش أبوالعلاء .

ولكن تولستوى – الذى كان لا يرى الحياة سوى مأساة – خالجه فى شيخوخته الأمل فى أن هذه الحياة يمكن علاجها وتغييرها وإصلاحها ، وأن الناس يمكن أن يصبحوا أحسن مما هم عليه وأسمى وأكمل ، وأنه يمكن أن يليح لهم بمثل أعلى أخلاقى يخلب لبهم ، ويبهر عقولهم ، وأن نقيم فى عالم الروح وملكوت السماء ونلوذ به من آلية العالم ، ولذا حاول أن يضفى على فنه صيغة أخلاقية ، وأن يوقفه على تطهير النفوس من الآثام والأرجاس والسمو بها وتهذيبها .

ولم تكن هذه النزعة طارئة عليه كل الطروء جديدة كل الجدة ، فقد بدت بشائرها وسماتها فى رواية «أنا كارنين» ، ثم تجلت واضحة ناطقة فى رواية «كروتزرسوناتا» ورواية «البعث» ، وأصبح تولستوى لا يرى الفن غاية فى نفسه ، وإنما يراه وسيلة من وسائل الإصلاح والتهذيب وإذاعة الأفكار ونشر العقائد والمعتقدات ، وأخذ يقيس الآثار الفنية بهذا المقياس الأخلاقى ، فالآثار الأدبية التى تعين على الخير ، وترقى بالنفس ، هى الآثار العظيمة الجديرة بالخلود ، أما الآثار التى لا يرجى منها العون على فعل الخير ، وتهذيب النفس ، فهى آثار سيئة تستحق الإهمال والإعراض والازدراء ، ومن ثم حملته على أدب شيكسبير وانتقاصه أدبه ونقده لفنه ، ولم يعف آثاره ومؤلفاته الفنية من هذا النقد ، فعاب روايته العظيمة «الحرب والسلام» وعدها رواية رديئة لا خير فيها ، ولا قيمة لها .

وتولستوى مثل أبى العلاء كثير الوصف لنفسه ، دائم التحدث عنها ، يصارحنا بكل ما يرد على خاطره ، ويهجس فى نفسه ، ولكنه لم يكن مع ذلك مغروراً مزهواً ، ولا متكبراً عاتياً ، وإنما كان شديد النقد لنفسه ، كثير التحامل عليها ، متواضعاً ألوفاً مثل أبى العلاء ، وقد عاش مثله فى حرب دائمة مع نفسه .

وقد بدأ هذا التحول عند تولستوى حينما بلغ الخمسين من عمره ، وكأنما فغرت عند قدميه هاوية ، فبدأ يرى الدنيا لغزاً مستعصياً يروغ منه ، وأخذ يتأمل شقاء الحياة وبؤس البائسين ، وفقر الفقراء والمحرومين ، وأصبحت أحزان الدنيا أحزانه ، وأثقال هموم البشرية همومه وأثقاله ، وشرع فى البحث عن لغز الحياة ، ويلتمس معرفته عن طريق الكنيسة فيخفق ، ويتجول إلى شوبنهاور ، ثم يرتد إلى سقراط وأفلاطون ، ثم يطوف بالأديان المختلفة باحثاً منقباً ، ويقرأ نيتشه والمتصوفين ، ثم يتجول بعد ذلك كله إلى المزارعين البسطاء ليتعلم منهم اليقين ،

ويستمد منهم الحكمة ، وينادى تولستوى بفكرة عدم مقاومة الشر بالقوة ، ويقصد تولستوى بالقوة القوة المطلقة التى تستتر خلف الاقتصاد السياسى ، أو التوسع الاستعمارى الذى قد يلبس لباس الفلسفة والمثل العليا القومية ، وقد ذهب تولستوى إلى أن الملكية مصدر الشر وأصل الشقاء ، والملكية فى حاجة إلى القوة لحمايتها ، والحماية هنا اعتداء وإجرام ، والملكية تستعين بالدولة على حماية نفسها ، وتقوم الدولة بأعباء هذه الحماية بتنظيم صور مختلفة من القوة ، مثل قوة الجيش ، وقوة الشرطة ، وسلطة القضاء ، والدولة فى العصر الحاضر قائمة على فكرة « القوة » لا على نظرية « الأخوة » ، ونلمح من وراء ذلك أن تولستوى ثائر على النظم الحديثة ، بل هو من الذين مهدوا السبيل للثورة الروسية الحديثة بمهاجمته للدولة والكنيسة ، وتشهيره بالنظام القيصرى ونظام الملكية .

وأبو العلاء مثل تولستوى متبرم بنظم عصره ، ثائر على حكومته ، ولكن فى لين ومداراة واصطناع تقية ، وقد حاول تولستوى أن ينزل عن ثروته ، ويتجرد من أملاكه ويعيش فقيراً زاهداً مغموراً ، فوقفت أسرته فى سبيله ، وعاقته عن المضى فى تنفيذ خطته ، وقد ثقل عليه ذلك وساءه وجعله فى هم ناصب ، وقد سأل نفسه فى يومياته قائلاً : « هل أنت نفسك تعيش طبقاً للمبادئ التى تدعو إليها ؟ » ورد على نفسه قائلاً «كلا ، إننى شديد الخجل ومجرم ومحتقر» أما أبو العلاء فقد عاش أفكاره ، وطابق إلى حد كبير بين أقواله وأعماله ، وقد يسرت له ذلك ظروفه الخاصة .

بين ابن خلدون وتيمورلنك

من الكتب القيمة والآثار الأدبية النفيسة التى أخرجتها لجنة التأليف والترجمة والنشر كتاب « التعريف بابن خلدون ، ورحلته شرقاً وغرباً » وهو كتاب جدير بالتنويه به لمكانة مؤلفه من ناحية ، وللطريقة العلمية والمنهج الصحيح الذى اتبعه الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى فى مراجعة أصوله والتعليق على حواشيه من ناحية أخرى .

والمؤرخ العلامة ابن خلدون فى طليعة المؤرخين المسلمين ، والمفكرين البارزين الممتازين ، وقد ظفر بتقدير الكثيرين من المفكرين الغربيين الذين تناولوا البحوث التاريخية ، وخاضوا فى لجج فلسفة التاريخ ، ووضعوا أسس علم الاجتماع الحديث .

والمؤرخ العلامة الباحث الأسكتلندى الواسع الاطلاع روبرت فلنت يقول عنه فى كتابه القيم عن « تاريخ فلسفة التاريخ » (صفحة ١٥٧) :

« الكاتب الأول الذى تناول التاريخ باعتباره موضوعاً مناسباً لعلم خاص كان محمداً بن خلدون ، أما كونه يعد من أجل ذلك موجد علم التاريخ أولاً فهى مسألة قد تختلف فيها الآراء ، ولكن لا يستطيع قارئ صريح لكتاب « المقدمة » أن يغيب عنه أن استحقاقه للشرف أكثر شرعية من أى مؤلف آخر سابق لفيكو » .

وهو يشير إلى كتاب « التعريف » قائلاً « معرفتنا عن حياته مستمد معظمها

من الترجمة الذاتية التى كتبها ، وهى تنتهى فى سنة ١٣٩٤ ميلادية (٧٩٧ هجرية) ، ويبدو من الواضح أنها دقيقة وأمينة ومفصلة ، ومع ذلك فهى لا تكشف لنا حياة الكاتب الداخلية وإنما تقدم لنا صورة واضحة لحياته الخارجية وبيئته » .

ويقول عنه المؤرخ ألبان ج ويدجرى فى كتابه « التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبى » (صفحة ٩٥ من الترجمة العربية) :

« وأقبل المسلمون على كتابة التاريخ بوفرة ، ذلك أنهم قد شاقتهم حياة زعمائهم . الدينيين منهم والدنيويين ، كما أعجبتهم حروبهم وتأسيسهم لقوتهم السياسية ، وأهم مؤرخى المسلمين وفاءً لغرضنا ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦ م) وقد أسماه بعضهم مؤسس علم التاريخ لأنه ذهب إلى أن التاريخ فرع نوعى من المعرفة يهتم بكامل مجال الظاهرات الاجتماعية للتاريخ الفعلى ، ويكشف المؤثرات المختلفة التى تعمل فيه ، وباستمرارات الأسباب والنتائج ، وبالمكونات الفيزيائية والنفسية ، ولم يكن التاريخ بالنسبة إليه مجرد تسجيل للحوادث ، بل وصفاً للعلاقات الاجتماعية الداخلية والخارجية » .

ويقول عنه الكاتب البحاثة بتريم سوركين فى كتابه « الفلسفات التاريخية والاجتماعية الحديثة » : « مقدمة ابن خلدون التى كتبت فى القرن الرابع عشر حينما ألمت بالثقافة العربية أزمة شديدة واحدة من أعظم فلسفات التاريخ ، وقد وصف ابن خلدون نفسه هذا العصر المضطرب ومتاعبه فى كتابه « تاريخ البربر والترجمة الذاتية والمقدمة » .

وفى كتاب « تاريخ الكتابة التاريخية » الذى ألفه هرى المر بارنز يقول فى صفحة ٩٤ ، « فى طرائق شتى كانت أكثر الحضارات تقدماً فى العصور الوسطى ليست هى الثقافة المسيحية ، بل كانت حضارة المسلمين ، وكذلك كان بعض

أقدر كتاب التاريخ فى العصور الوسطى من المسلمين ، وأعظمهم ابن خلدون ، وهو يسبق ويتفوق على أى مؤرخ مسيحى فى العصور الوسطى ، وذلك فى تفهمه الأساسى لمبادئ التقدم الثقافى الإنسانى ، وحتى عصر فولتير فى القرن الثامن عشر لم يكن هناك مؤرخ فى العالم المسيحى يعادله من هذه الناحية » ويقول عنه فى صفحة ٩٦ من الكتاب نفسه : « لقد كان روجر بيكون كناية التاريخ فى العصر الوسيط » وينقل بعد ذلك رأى روبرت فلنت السابق ذكره فى تأكيد مكانة ابن خلدون .

وكتاب التعريف ترجمة ذاتية كتبها ابن خلدون لنفسه ، وقد أراد هذا المؤرخ الكبير الذى أرخ للدول والجماعات والأفراد أن يكتب تاريخ حياته ، ويعرفنا بسلفه وأسرته ، والتراجم الذاتية فى الأدب العربى قليلة نادرة ، وهو أمر يستوقف النظر ، فقد عنى مؤرخو المسلمين عناية كبيرة بكتابة التراجم والسير ، واشتملت كتب الطبقات على تراجم الصحابة والفقهاء والمحدثين والنحاة والشعراء والأطباء والحكماء والقضاة ، وقد كان الشعراء يتحدثون عن أنفسهم فى مجال الفخر والمباهاة ، فالمتنبى مثلاً قد حدثنا كثيراً عن نفسه فى خلال أماديحه لسيف الدولة وكافور الإخشيدى . والوزير ابن العميد وغيرهم من ممدوحيه ، ولكن الكتاب كانوا على ما يظهر يتحرجون من الكتابة عن أنفسهم ، وربما كان من أقدم المذكرات الشخصية فى الأدب العربى ما كتبه الأمير الزبيرى عبد الله بن بلكين أمير غرناطة فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى ، ومذكرات الأمير العربى أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٨٥٤ هجرية ، وقد تحدث فيها عن سيرته وأعماله وفروسيته ، وفى كتاب « طوق الحمامة » يذكر لنا الإمام بن حزم لمحات عن حياته ونشأته وتجاربه العاطفية ، وملاحظاته الشخصية ، وذكرياته السارة والمحزنة ، وتكلم الشاعر عمارة اليمنى — المتوفى سنة ٥٦٩ هجرية — عن نفسه

وبعض أعيان عصره فى كتاب « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » .

وترجمة ابن خلدون لنفسه من أوفى التراجم الذاتية فى الأدب العربى ، وبعض المؤرخين الذين سبقوا ابن خلدون إلى الترجمة لأنفسهم كانوا يذكرون أخبار حياتهم بطريقة موجزة فى مقدمة كتبهم ، كما فعل يا قوت الحموى فى كتابه « معجم الأدباء » ولسان الدين بن الخطيب الذى عاصر ابن خلدون فى كتابه « الإحاطة » والسيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » وكما فعل بعدهم المقرى فى كتاب « نفخ الطيب » .

أما ابن خلدون فقد أفرد لحياته كتاباً مطولاً ، وجعلها موضوع بحث مستفيض ، وهو من هذه الناحية غير مسبوق فيما أعلم ، وقد اختلط تاريخ ابن خلدون بتاريخ عصره ، ولذلك وجد مادة وافرة يملأ بها كتابه ، وهو يحدثنا فى هذا الكتاب عن نسبه وتاريخ أسرته ، ومختلف أدوار حياته ويبدو لنا فى بادئ الأمر أن توفر الكتاب على كتابة التراجم الذاتية أمر عادى مألوف ، لأن الذى يغلب على الظن أن كل إنسان أعرف من غيره بحوادث حياته وماضى سيرته ، وسابق تجاربه ، وأدرى بدخائل نفسه وخوافيها ومضمر أسرارها ، ولا خلاف فيما أظن فى أن كل إنسان يعرف من أمر نفسه أكثر مما يعرف من أمر غيره ، والمشاهد أن كثيراً من الناس لا تتوقد حماستهم وتتألق أنوار بلاغتهم إلا حينما يتحدثون عن أنفسهم ، ويصفون مواهبهم السنية ، وقدرتهم الخارقة ، وبواعثهم الشريفة ، وعواطفهم النبيلة !

ولكن بالرغم من ذلك فإن التراجم الذاتية ليست من المؤلفات الكثيرة العدد التى درج عليها المؤلفون فى الأدب العربى ، والتراجم الذاتية بوجه عام لم تكثر ويشتد الإقبال عليها إلا فى العصر الحديث ، ومع كثرتها فى الآداب الأممية الحديثة فإنها لا تعد مع ذلك من الأمور المألوفة التى يتقبلها الناس فى يسر

وسهولة ، ولذلك يحاول كتاب التراجم الذاتية فى الأعم الأغلب أن يلتمسوا فى مقدمة كتبهم الأعذار ، ويسوغوا البواعث التى دعتهم إلى الكتابة عن أنفسهم ، ولا يقتضى ذلك أن يكون ما يذكرونه عن أنفسهم هو السبب الحقيقى والدافع الأصيل .

ونحن بطبيعة الحال نتردد فى الكشف عن نفوسنا ، وعرض أخبار حياتنا ، وشغل الناس بأنفسنا ، وربما كان السبب فى ذلك سوء الظن الذى ورثناه عن الإنسان الذى كان يعيش فى خوف دائم وحذر مستمر ، وحقيقة أن الحاجة إلى اليقظة المتصلة والتحفظ الشديد قد قلت حدتها ، ولكن الناس برغم ذلك يؤثرون الاحتفاظ بأسرارهم ، ويشعرون بأن الإطالة فى التحدث عن النفس لون من ألوان الادعاء يمجه الذوق ، ويثقل وقعه على نفوس الغير ، ولا بد للمتحدث عن نفسه أن يكون بارع الحديث ، حافل الجعبة بالأخبار الشائقة حتى يتقبل الناس حديثه بصدر رحب ونفس راضية .

ولا نزاعَ فى أن ابن خلدون كان رجلاً قوى الشخصية ، بارز المكانة بين أعلام عصره ، شديد الشعور بتفوقه وامتيازه ، كثير التجارب والمغامرات ، ولذلك سهل عليه الاجتراء على أن يخصص كتاباً يروى فيه حوادث حياته ، وأخبار رحلاته ، وترجمته لنفسه تشف عن الكثير من الصفات التى اشتهر بها ، ففيها ثقته العظيمة بنفسه ، واعتزازه بقدرته ، وهو يتحدث فى شىء من الزهو والخيلاء عما لقيه فى حياته من التكريم والإعجاب والتقدير ، ويقول عن نفسه إنه سليل أسرة عريقة نابهة ، وبيت من بيوت الرياسة والسياسة فى الأندلس ، أى أنه من أبناء البيوتات كما يقول أهل عصرنا ، ويرجع تاريخ أسرته إلى عهد فتح الأندلس ، ويقول إنها يمنية الأصل ، وأن أجداده ظهروا على مسرح الحوادث ظهوراً بارزاً فى أواخر القرن الثالث الهجرى فى عهد أمير الأندلس

عبد الله بن محمد ، وقد استقل أحد أجداده بإمارة إشبيلية ، وقتل بعد ذلك ، واستشهد بعض أفراد أسرته فى واقعة الزلاقة المشهورة التى حدثت سنة ٤٧٩ هجرية ، ولما ضعفت دولة الموحدين فى المغرب ، واضطربت أمور الأندلس ، واستولى الأسبانيون على معظم ثغورها وحواضرها آثر بنو خلدون الرحيل من الأندلس ، فنزحوا إلى تونس ، وتقلب أفراد من الأسرة فى مناصب الحجابة والوزارة ، ويمكن أن تستخلص من ذلك أن ابن خلدون كان يجد من مكانة أسرته وماضيها وقوة تفكيره وغزارة علمه ما يدفعه إلى طلب المجد ، وحب السيطرة والنفوذ ، وقد كانت حياته حافلة ملأى بالحوادث والتجارب ، فقد اشتغل بالأدب والسياسة والقضاء ، وخدم ملوك عصره وأمراءه ، واتصل بهم اتصالاً وثيقاً ، وعرف بواطن الأمور ، ودخائل السياسة ، ورافق الدول ، وصحب الجيوش ، واستهدف للدسائس والمكائد ، وتعرض للأخطار والشدائد ، وتنقل فى العواصم الزاهرة ، والبوادى المقفرة ، ودخل الأندلس ، وسفر بها بين السلطان ابن الأحمر وملك قشتالة ، وهو يقول إن ملك قشتالة عامله من الكرامة بما لا مزيد عليه ، وعلم أولويته عند سلفه بأشبيلية ، وطلب منه المقام عنده ، وإن برد عليه تراث سلفه ، وكان أينما حل يثير حسد الحساد وكيد الكائدين ، وقد كان بينه وبين لسان الدين بن الخطيب وزير السلطان ابن الأحمر صداقة ومودة ، وبرغم ذلك فإنه حينما أقام بالأندلس أظلم بينهما الجو ، وخشى ابن خلدون دسائس صديقه ، فآثر العودة إلى المغرب ، فلما رحل وابتعد صفا الجو بينهما ، وجعل ابن الخطيب يحبر إليه الرسائل المسهبة متحدثاً عن شدة شوقه إلى رؤيته ، وما يعانيه من آلام الوحشة لرحيله !

وجاء ابن خلدون إلى مصر ، وولى القضاء بها ، ولقى الأمرين من السعاية به والتأليب عليه ، وكان ابن خلدون واسع الدهاء عظيم الحيلة ، ولذا استطاع أن

يقاوم الكيد والدس ، ويحتفظ برأسه على كتفيه .

وقد جمع فى كتابه بعض القصائد التى نظمها ، ولم يكن ابن خلدون ينظم الشعر للاستجداء ، فقد كان أرفع مقاماً من ذلك ، وإنما كان ينظمه التماساً للحظوة ، وتوطيداً لنفوذه السياسى ، فهو سياسى حتى فى شعره ، وهو يطيل فى أكثر قصائده ، وشعره يمتاز بالسلاسة والوضوح ، ولكن تنقصه حرارة العاطفة وصدق الشعور ، وموجز القول أن ترجمته لنفسه قصة شائقة ، متعددة الفصول ، زاهية الألوان ، منوعة المناظر ، ومن فصولها الشائقة قصة لقائه لذلك العاهل الخطير ، والسفاح الرهيب الذى طالما أسال الدماء ، وأطار الرؤوس وأزهق الأرواح ، وعرفه التاريخ باسم تيمور لنك .

ففى أثناء وجود ابن خلدون بمصر سنة ٨٠٣ هجرية وردت الأنباء بأن تيمور لنك قد انقض بجيوشه الجرارة على الشام ، واقتحم مدينة حلب بعد أن قتل كثيراً من أهلها ، وخرب بيوتها ، وكذلك فعل بحماه ، وكان على عرش مصر فى ذلك الوقت الناصر فرج بن برقوق أحد سلاطين دولة الشراكسة ، وكان لهذه الأنباء وقع شديد فى مصر ، واضطر الناصر فرج إلى أن يخرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى الذى اخترق بعد ذلك الشام جنوباً قاصداً دمشق .

واصطحب الناصر فرج معه قضاة المذاهب الأربعة ، وجماعة من الفقهاء والمتصوفة ومنهم ابن خلدون ، ولم يكن راضياً فى بادئ الأمر عن هذه الرحلة ، فقد كانت سنه حينذاك قد تجاوزت السبعين ، وتعب من المهام السلطانية الخطرة التى عانى الكثير منها بالمغرب ، وهو يتحدث عن الدعوة السلطانية إلى الذهاب قائلاً « (١) لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر مَلَك بلاد الروم ، وضرب سيواس ، ورجع إلى الشام ، جمع السلطان عساكره ، وفتح ديوان العطاء ،

(١) صفحة ٣٦٦ من كتاب «التعريف بابن خلدون»

ونادى فى الجند بالرحيل إلى الشام ، وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة ، فاستدعانى دَوَاداره يشبك ، وأرادنى على السفر معه فى ركاب السلطان ، فتجافيت عن ذلك ، ثم أظهر العزم علىّ بلين القول ، وجزيل الإنعام فأصخيت ، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث ، فوصلنا إلى غزة ، فأرحنا بها أياماً نترقب الأخبار ، ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الططر إلى أن نزلنا شقحب ، وأسرينا فصبحنا دمشق ، والأمير تمر فى عساكره قد رحل من بعلبك قاصداً دمشق » .

ونزل ابن خلدون مع سائر الفقهاء والعلماء فى المدرسة العادلية ، واشتبك العسكران فى معارك محلية ، وكانت الحرب بينهما سجالاً ، ثبت فيها الجنود المصريون ، ثم نمى إلى السلطان وأكابر أمرائه أن بعض الأمراء المنغمسين فى الفتنة يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها ، فبعد أن بدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين ترك السلطان دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعاً إلى القاهرة خشية انتقاض الناس واختلال الدولة ، ووقع أهل دمشق فى حيرة ، وحدث خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة ، وخاف ابن خلدون أن تقع المدينة فى يد الأمير تيمورلنك الذى لا يعرف قلبه الرحمة ، ولا ينثنى عن سفك الدماء فيكون نصيبه القتل أو النكال ، واجتمع ابن خلدون مع القضاة والفقهاء فى مدرسة العادلية ، واتفق رأيهم على طلب الأمان من تيمورلنك على بيوتهم وحرمهم ، ولما شاوروا فى ذلك نائب قلعة دمشق أبى عليهم ذلك واستنكره ، فلم يوافقوه ، ويروى لنا ابن خلدون أن تيمورلنك أجاب القاضى برهان الدين بن مفلح الحنبلى وغيره من الوجوه والقضاة إلى التأمين ، فخرجوا إليه متدلين من السور ، فأحسن لقاءهم ، وكتب لهم الرقاع بالأمان ، واتفقوا معه على فتح المدينة ، وأخبر القاضى برهان الدين ابن خلدون أن تيمورلنك سأل عنه وهل سافر مع

عساكر مصر أو أقام بالمدينة ، فأخبره بمقام ابن خلدون بالمدرسة العادلية .

وبات ابن خلدون تلك الليلة على أهبة الخروج إلى تيمور لنك ، وحدث بين بعض الناس فى المسجد الجامع خلاف ، وبلغه الخبر فى جوف الليل ، فخاف على نفسه ، وبكر فى السحر إلى جماعة القضاة عند الباب ، وطلب الخروج أو التدلى من سور المدينة ، فأبوا عليه ذلك فى أول الأمر ، ووافقوا بعد ذلك ودلوه من السور ، ولقى عند الباب جماعة من حاشية تيمور لنك ونائبه شاه ملك ، وهو الذى اختاره لولاية دمشق عند تسليمها ، فانضم إليهم ، والتمس المثول بين يدى تيمور لنك .

ويقول ابن خلدون فى لقائه لحاشية تيمورلنك «حين لقيهم» : فحييتهم وحيونى ، وفديت وفدونى ، وقدم لى شاه ملك مركوبا ، وبعث معى من بطانة السلطان من أوصلنى إليه ، فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجلاسى فى خيمة هنالك تجاور خيمة جلوسه ، ثم زيد فى التعريف باسمى أنى القاضى المالكى المغربى ، فاستدعانى ، ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئا على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه ، يشير بها إلى عصب المُغُل جلوسا أمام خيمته ، حلقاً حلقاً »

ويصف لنا ابن خلدون دخوله فيقول « فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام ، وأومأت إيماءة الخضوع ، فرفع رأسه ، ومد يده إلىّ فقبلتها ، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان ، من فقهاء الحنفية بخوارزم ، فأقعده يترجم ما بيننا »

وكان ابن خلدون حينما دخل على تيمورلنـــك فى زى المغاربة ، فعلم تيمورلنك أنه ليس من أهل تلك البلاد فسأله قائلاً :

«من أين جئت ، من المغرب ، ولما جئت ؟» .

فقال ابن خلدون «جئت من بلادى لقضاء الفرض . ركبت إليها البحر ، ووافيت مرسى الإسكندرية يوم الفطر سنة أربع وثمانين من هذه المائة الثامنة ، والمفرحات بأسوارهم لجلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددها »

تيمورلنك «وما فعل معك ؟»

ابن خلدون «كل خير . بر مقدمى . وأرغد قراى ، وزودنى للحج ، ولما رجعت وفر جرايتى ، وأقمت فى ظله ونعمته ، رحمه الله وجزاه »

تيمورلنك «وكيف كانت توليته إياك القضاء ؟»

ابن خلدون «مات قاضى المالكية قبل موته بشهر ، وكان يظن بى المقام المحمود فى القيام بالوظيفة ، وتحرى المعدلة والحق ، والإعراض عن الجاه ، فولانى مكانه ، ومات بشهر بعدها ، فلم يرض أهل الدولة بمكانى، فأدالونى منها بغيرى ، جزاهم الله »

تيمورلنك «وأين ولدك ؟»

ابن خلدون «بالمغرب الجوانى كاتب للملك الأعظم هنالك »

تيمورلنك «وما معنى الجوانى فى وصف المغرب ؟»

ابن خلدون «هو فى عرف خطابهم معناه الداخلى ، أى الأبعد ، لأن المغرب كان على ساحل البحر الشامى من جنوبه ، فالأقرب إلى هنا برقة وأفريقية والمغرب الأوسط : تلمسان وبلاد زناتة ، والأقصى فاس ومراكش ، وهو معنى الجوانى

تيمورلنك «وأين مكان طنجة من ذلك المغرب؟»

ابن خلدون «فى الزاوية التى بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزُّقَاق ، وهو خليج البحر الشامى »

تيمورلنك « وسبتة ؟ »

ابن خلدون « على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق ، ومنها التعدية إلى الأندلس لقرب مسافته !لأنها هناك على نحو العشرين ميلا »

تيمورلنك « وفاس ؟ »

ابن خلدون « ليست على البحر ، وهى فى وسط التلول ، وكرسى ملوك المغرب بنى مرين

تيمورلنك « وسجلماسه ؟ »

ابن خلدون « فى الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب

تيمورلنك « لا يقنعنى هذا ، وأحب أن تكتب لى بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها ، وجباله وأنهاره ، وقراه وأمصاره ، حتى كأنى أشاهده .

ابن خلدون : « يحصل ذلك بسعادتك »

ويقول ابن خلدون « وكتبت له بعد انصرافى من المجلس لما طلب من ذلك ، « وأوعبت الغرض فيه فى مختصر وجيز يكون قدر ثنتى عشرة من الكراريس المنصفة القطع »

وأشار تيمورلنك إلى خدمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشتة ، ويحكمونه على أبلغ ما يمكن ، فأحضرت الأوانى منه ، وأشار تيمورلنك بعرضها على ابن خلدون ، فمثل قائما وتناولها وشرب واستطابها فوقع ذلك من تيمورلنك أحسن موقع

وجلس ابن خلدون ، وساد الصمت ، وغلبه الوجل لما وقع من نكبة قاضى القضاة الشافعية صدر الدين المناوى ، امره التابعون لعسكر مصر بشقحب ، وردوه فحبس عندهم فى طلب الفدية منه ، ويقول ابن خلدون : « فأصابنا من ذلك وجل ، فزورت فى نفسى كلاما أخاطبه به ، وأتلطفه بتعظيم أحواله

وملكه ، وكنت قبل ذلك بالمغرب قد سمعت كثيراً من الحدثان فى ظهوره ، وكان المنجمون المتكلمون فى قرانات [١] العلويين يترقبون القران العاشر فى المثلثة الهوائية [٢] ، وكان يُترَقب عام سنة وستين من المائة السابعة ، فلقيت ذات يوم من عام أحد وستين بجامع القرويين من فاس الخطيب أبا على بن باديس خطيب قسطنطينة ، وكان ماهراً فى ذلك الفن ، فسألته عن هذا القران المتوقع وما هى آثاره ؟ فقال لى « يدل على ثائر عظيم فى الجانب الشمالى الشرقى من أمة بادية أهل الخيام ، تتغلب على الممالك ، وتقلب الدول ، وتستولى على أكثر المعمور » فقلت « ومتى زمنه ؟ » فقال « عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره ، وكتب لى بمثل ذلك الطبيب ابن زرزر اليهودى ، طبيب ملك الإفرنج ابن أذ فونسن ومنجمه ، وكان شيخى رحمه الله أمام المعقولات محمد بن إبراهيم الآبلى متى فاوضته فى ذلك أوسألته عنه يقول « أمره قريب ولا بد لك إن عشت أن تراه » .

« وأما المتصوفة فكنا نسمع عنهم بالمغرب ترقبهم لهذا الكائن ، ويرون أن القائم به هو الفاطمى المشار إليه فى الأحاديث النبوية من الشيعة وغيرهم ، فأخبرنى يحيى بن عبد الله حافد الشيخ أبى يعقوب البادسى كبير أولياء المغرب أن الشيخ قال لهم ذات يوم وقد انفتل من صلاة الغداة « إن هذا اليوم ولد فيه القائم الفاطمى ، وكان ذلك فى عشر الأربعين من المائة الثامنة ، فكان فى نفسى من ذلك كان ترقب له » ويسترسل ابن خلدون قائلاً « فوقع فى نفس لأجل الوجل الذى كنت فيه أن أفاوضه فى شىء من ذلك يستريح إليه ، ويأنس به منى ،

---

(١) الكوكبان العلويان زحل وامشترى ، والمراد بالقران – عند الاطلاق – اجتماع المشترى وزحل خاصة (مفاتيح العلوم صفحة ٢٣٢)

(٢) المثلثة كل ثلاثة بروج تكون متفقة فى طبيعة واحدة من الطبائع الأربع (مفاتيح العلوم ص ٢٢٦)

ففاتحته وقلت «أيدك الله ! لى اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك» فقال لى الترجمان عبد الجبار «وما سبب ذلك ؟»

فقلت «أمران ، الأول أنك سلطان العالم وملك الدنيا ، وما أعتقد أنه ظهر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك ، ولست ممن يقول فى الأمور بالجزاف ، فإنى من أهل العلم وأبين ذلك فأقول «إن الملك إنما يكون بالعصبة ، وعلى كثرتها يكوم قدر الملك ، واتفق أهل العلم من قبل ومن بعد أن أكثر أمم البشر فرقتان : العرب والترك ، وأنتم تعلمون ملك العرب كان لما اجتمعوا فى دينهم على نبيهم ، وأما الترك ففى مزاحمتهم لملوك الفرس ، وانتزاع ملكهم افراسياب خراسان من أيديهم شاهد بنصابهم من الملك ، ولا يساويهم فى عصبيتهم أحد من ملوك الأرض من كسرى أو قيصر أو الإسكندر أو بختنصر ، أما كسرى فكبير الفرس ومليكهم ، وأين الفرس من الترك ؟ وأما قيصر والإسكندر فملوك الروم وأين الروم من الترك ؟ وأما بختنصر فكبير أهل بابل والنبط ، وأين هؤلاء من الترك ؟ وهذا برهان ظاهر على ما ادعيته فى هذا الملك .

وأما الأمر الثانى مما يحملنى على تمنى لقائه فهو ما كنت أسمعه من أهل الحدثان بالمغرب والأولياء ، وذكرت ما قصصته من ذلك قبل . فقال لى «وأراك قد ذكرت بختنصر مع كسرى وقيصر والإسكندر ، ولم يكن فى عدادهم ، لأنهم ملوك أكابر ، وبختنصر قائد من قواد الفرس ، كما أنا نائب من نواب صاحب التخت ، وهو هذا ، وأشار إلى الصف القائمين وراءه ، وكان واقفاً معهم ، وهو ربيبه الذى تقدم لنا أنه تزوج أمه بعد أبيه ساطلمش ، فلم يلعنه هناك ، وذكر له القائمون فى ذلك الصف أنه خرج عنهم .

فرجع إلى مقال «ومن أى الطوائف هو بختنصر؟ »

فقلت «بين الناس فيه خلاف ، قيل من النبط بقيته ملوك بابل وقيل من الفرس الأولى ، فقال «يعنى من ولد منو شهر» قلت «نعم هكذا ذكروا» فقال «ومنوشهر له علينا ولادة من قبل الأمهات»

ويقول ابن خلدون «ثم أفضت مع الترجمان فى تعظيم هذا القول منه ، وقلت له «وهذا مما يجعلنى على تمنى لقائه»

فقال الملك «وأى القولين أرجح عندك فيه ؟»

فقال ابن خلدون «إنه من بقية ملوك بابل»

فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر.

فقال ابن خلدون «هذا يعكر علينا رأى الطبرى ، فإنه مؤرخ الأمة ومحدثهم ولا يرجحه غيره»

فقال تيمورلنك «وما علينا من الطبرى ، نحضر كتب التاريخ للعرب والعجم ونناظرك»

فقال ابن خلدون «وأنا أيضاً أناظر على رأى الطبرى»

وهنا انتهى القول ، فسكت تيمورلنك ، وجاءه الخبر بفتح باب المدينة وخروج القضاة وفاء بما زعموا من الطاعة التى بذل لهم فيها الأمان ، فرفع من بين يديه لما فى ركبته من الداء ، وحمل على فرسه ، فقبض شكائمه ، واستوى فى مركبته ، وضربت الآلات حفافيه حتى ارتج لها الجو ، وسار نحو دمشق ، ونزل فى تربة منجك عند باب الجابية ، فجلس هناك ، ودخل إليه القضاة وأعيان البلد ، ودخلت فى جملتهم ، فأشار إليهم بالانصراف ، وإلى شاه ملك نائبه أن يخلع عليهم فى وظائفهم ، وأشار إلىّ بالجلوس ، فجلست بين يديه ، ثم استدعى أمراء دولته القائمين على أمر البناء ، فأحضروا عرفاء البنيان المهندسين ، وتناظروا فى إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة لعلهم يعثرون بالصناعة على

منفذه ، فتناظر فى مجلسه طويلاً ثم انصرفوا . وانصرفت إلى بيتى داخل المدينة بعد أن استأذنته فى ذلك فأذن فيه ، وأقمت فى كسر البيت ، واشتغلت بما طلب منى فى وصف بلاد المغرب ، فكتبته فى أيام قليلة ، ورفعته إليه ، فأخذه من يدى ، وأمر موقعه بترجمته إلى اللسان المغلى » .

وأهدى ابن خلدون تيمورلنك مصحفاً رائعاً وسجادة أنيقة ونسخة من قصيدة البردة وأربع علب من الحلوى المصرية الفاخرة ، ولما رأى تيمورلنك المصحف قام مبادراً فوضعه على رأسه ، وسأل عن البردة وعن ناظمها ، وقبل السجادة ، ولما وضعت علبة الحلوى بين يديه تناول منها على العادة فى التأنيس بذلك ، ثم قسم ما فيها من الحلوى بين الحاضرين فى مجلسه ، وتلطف ابن خلدون فى طلب مكتوب أمان لنفسه ولزملائه العلماء والقضاة ، وأجابه تيمورلنك إلى طلبه ، وانصرف إلى منزله

وسمح له بعد ذلك تيمورلنك بالعودة إلى مصر فى جمع من أصحابه ، واعترضهم فى الطريق جماعة من اللصوص نهبوا ما معهم ، ولما وصل سالما إلى القاهرة حمد الله على الخلاص من تيمورلنك ومن اللصوص ، وكتب إلى صاحب المغرب مولاه السابق يصف هذه الحوادث ، وما وقع بينه وبين تيمورلنك ، فقال « إنه شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللجاج ، بما يعلم وبما لا يعلم ، وأن عمره بين الستين والسبعين ، وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه فى الغارة أيام صباه ، كما أخبر ابن خلدون

وذكر بعض العلماء أن ابن خلدون لما أقبل على تيمورلنك قال له « دعنى أقبل يدك » فقال له تيمور « ولم ذلك ؟ » فقال ابن خلدون « لأنها مفاتيح الأقاليم » يشير إلى أنه فتح خمسة أقاليم ، وأصابع يده خمس ، فلكل أصبع إقليم ، ولا أستكثر هذه الرواية على دهاء ابن خلدون

وفى رواية أن ابن خلدون قال لتيمورلنك «إنى ألفت كتابا فى تاريخ العالم ، وحليته بذكرك» فقال له تيمورلنك «كيف ساغ لك أن تذكرنى فيه وتذكر بختنصر مع أننا خربنا العالم ؟»

فأجابه ابن خلدون فى لباقته وحسن تخلص «أفعالكما العظيمة ألحقتكما بالذكر مع ذوى المراتب الجسيمة ، أو بما يقارب ذلك من العبارات ، وكانت هذه العبارة وأمثالها من عبارات الإطراء والملاينة والاسترخاء التى كان يتأنق فى اختبارها هذا السياسى المحنك مما جعل الطاغية السفاح يأنس به ، ويرضى عنه ، وقد استطاع ابن خلدون بذلك أن يدفع الأذى عن نفسه وعن زملائه وأصحابه ويخرج من هذه المحنة خروج «الخمر من نسج الفدام» كما قال المتنبى.

نابليون وسخرية الأقدار

للقاص الروسى البارع إسكندر كوبرن أقصوصة عنوانها « إغراء » ، مضمونها أن مهندساً فى ريعان الشباب قوى البنية ، رضى الأخلاق ، كريم الطباع ، كان عائدًا فى قطار الشرق الأقصى قاصدًا مدينة بتروغراد بعد أن قضى فى الشرق خمس سنوات ، بعيدًا عن أسرته ، جمع فى غضونها ثروة طائلة ، وكان يبدو موفور السعادة طافح البشر ، وكان يستطيل الوقت ويكاد يستحث سرعة القطار ، ولا ينى يتحدث عن شدة شوقه إلى رؤية أفراد أسرته ، وحرصه على لقائهم ، وكان فى كل محطة يرسل برقية إلى أسرته ويتلقى منها برقية ، ولما طوى القطار تلك المسافة الشاسعة وبلغ العاصمة الزاهرة اشتد شوقه ، وعظم تأثره ، واصفار وجهه ، واضطربت أعصابه ، وفقد اتزانه ، فسقط من جراء ذلك تحت عجلات القطار. والفكرة التى حاول توضيحها مؤلف الأقصوصة هى أن الرجل لشدة حرصه ، وفرط حماسته لرؤية أسرته بعد الغياب الطويل والسفر البعيد ، أغرى الأقدار بمعاكسته ، وحرضها على أن تتحداه ، وقد بدأ كوبرن هذه القصة العجيبة المحزنة بهذه المحاورة التى تلائمها فى الغرابة والخفاء :

(لقد اعتدت أن تردد فى مناسبات كثيرة قولك « إنها المصادفة » ولكن الأمر الجوهرى الذى أود أن أسترعى التفاتك إليه هو أن المسألة أخطر مما تظن وأكثر تعقيدًا .

واسمح لى أن أقول إنى قد وقفت على الستين ، وهى تلك المرحلة من مراحل

العمر التي يرى الإنسان فيها أمامه بعد الأهواء المضلة ، والصراع الطويل ، ثلاث طرق ، وهي طريق الطمع وطريق الطموح وطريق الفلسفة ، ويمكن أن أقول إنها طريقان ، لأن الطموح ضرب من الطمع .

ولست أستطيع أن أسمي نفسي فيلسوفاً فإن ذلك عبء ثقيل لا أقوى على حمله ، وثوب فضفاض لا يلائمني ، وفضلاً عن ذلك فإن في وسعك أن تجبهني بقولك « أنثر عليّ كنانتك وأرني إجازتك » ، ولكني برغم ذلك قد عشت حياة منوعة حافلة ، وبلوت النعماء والبأساء ، وتمرست بأهوال الفقر والمرض والحرب ، وراعني فقد أقرب الناس إلي وآثرهم عندي ، وعانيت مرارة الأسر والسجن ، ولواعج الحب ومضض العار ، وبرد اليقين وألم الجحود .

وسواء أصدقتني أم لم تصدقني فإني قد عرفت الناس . ولا تحسبن هذا شيئاً غير عجيب ، إنه شيء جد عجيب يا سيدي ! ولكي تعرف أي إنسان ، وتخلص إلى سريرته ، يلزم أن تكون قادرًا على نسيان شخصك ، وأن تغفل عن محاسنك ومناقبك وجلالة خطرك ، وقليل من الناس من يستطيعون ذلك .

والآن وأنا في أيامي المدبرة ، أنا الفقير الأثيم أحاول أن أفكر في الحياة ، وأنا – كما تراني – شيخ عالي السن ، وحيد من الخلان ، ناء عن الأهل . وأنت تعرف طول ليالي العجائز ، ولكن ذاكرتي لا تز ال تحتفظ بآلاف الذكريات . ومما يروقني أن أستعيد صور الماضي وسوالف الحوادث .

ولقد طاف بنا الحديث على مسألة « المصادفة » و « القضاء » وأنا مستعد أن أسلم معك بأن المصادفة حمقاء رعناء ، متقلبة الأطوار عمياء ، تخبط خبط العشواء . ولكن هناك قانوناً صامتاً يسيطر على الحياة ، ويقضي بأن كل شيء يولد ويتجدد ، ثم ينمو ويزدهر ، ويوفي على الكمال ويبلغ الذروة ، ثم يتراجع وينكص وتتقلص ظلاله ، وتصوح زهرته ، ثم يصيبه العفاء والدثور ثم يعيد ثانية

سيرته ، ويبعث من جديد ، وهكذا دواليك مثل التعرج اللولبي .

وستحاول أن تقول إن مثل هذا القانون لو كان موجوداً لكانت الناس قد استكشفته من زمن طويل ، ولا ستطاع البشر قراءة المستقبل ، ومطالعة الغيوب ، ولكن الأمر ليس كذلك ، لأننا نحن الأناس مثل النساجين الذين يجلسون متقاربين إزاء سداة طويلة الامتداد تمر أمامهم الألوان المختلفة من أصفر فاقع ، أو أحمر قان ، أو أزرق داكن ، ولكنهم لا يستطيعون تمييز الأنموذج لقربه منهم ، والحياة لا تتكّشف أسرارها ، وتنجلى غوامضها ، إلا للذين استطاعوا أن يقفوا بعيداً عنها مثل عباقرة العلماء ، وصفوة الأنبياء والشعراء ، والمتعصبين لأفكارهم . وإنى على أتم استعداد لقبول أحكام تلك القوانين المسيطرة على كل شيء ، ولكنى ألمح قوة أخرى لا أعرف كيف أعبر عنها ، ولا كيف أسميها ، ولكنها لو تجسمت فى شخص لظهر الشيطان إلى جانبه ساخراً هين الشأن جديراً بالمرثية له .

تصور قوة مسيطرة على الكون تكاد تعادل قوة الله ، وإلى جانبها قوة أخرى عاتية لاهية ، تتجاهل الخير والشر ، وهى مع ذلك قاسية لا ترحم ، ولكنها حادة الذكاء عادلة ، وربما استغلق عليك فهم حديثى فلأضرب لك مثلا حياة نابليون ، فهى حياة تشبه الخرافة ، وشخصية عظيمة مفرطة فى العظمة ، وقوة متمادية ، لا ينضب معينها ، ولا ينقطع مدها ، ولكن انظر إلى خاتمة ذلك كله ! جزيرة صخرية صغيرة ، وألم مبرح فى المثانة ، وتذمر كتذمر العجائز . ولا شك عندى فى أن هذه الخاتمة التعسة كانت من سخرية تلك القوة الغريبة التى أشرت إليها ، وقد فطن القدماء لهذه القوة المجهولة ، وكانوا يخشونها ، ويحذرون جانبها ، وكانوا يسمون بسماتها الساخرة «غيرة الأقدار»

فى ضوء هذه الأفكار التى يختلط فيها الوضوح بالغموض ، ويلتقى فيها الظل

والضوء أريد أن أنظر إلى سمة ظاهرة فى حياة نابليون ، وهى تصوره للقضاء فى أواخر أيامه وهو منفى فى جزيرة القديسة هيلانة .

كان نابليون فى صباه ومطالع حياته ، نابليون القائد ونابليون القنصل ، لا يرى فى كلمة « القضاء » معنى غامضاً ، ولا لغزاً غريباً ، لأنه كان عقلى النزعة ، مادى الفلسفة ، وكان فوق ذلك كله واقعيًّا لا يغره بريق الأحلام ، ولا يجرى وراء الخيال . وكان يحلل كل موقف تحليلا دقيقاً ، ويزنه وزناً فاحصاً وكان يثق بنفسه ، ويعتمد على إرادته القوية ، وعزمه الصارم . ويعتقد أن الموقف الفاصل فى حياة الإنسان هو معرفته مدى مواهبه ، وطبيعة ملكاته ، واستثمار تلك المعرفة جهد الطاقة . ومتّى اطمأن إلى ذلك فسرعان ما تتبدد الشكوك ، ويزول التردد ، وينطلق فى طريقه قدماً وهو عليم بغايته ، عارف بوسائله ، يحدوه الإيمان بنفسه ، والثقة بقدرته .

وكان يعتقد أنه يستطيع أن يقدر وجوه المعركة القادمة ، وشتى محتملاتها فى دقة حسابية قل أن يتطرق إليها الخطأ ، وبذلك لا يترك مجالا للمصادفة ولا نصيباً للحظ ، وأصحاب المدارك المتوسطة أو العقول العادية هم الذين يعتقدون بالمصادفة ، ويرونها لغزاً غريباً ، وسرًّا غامضاً . أما هو ذو البصر الحديد ، والرأى الصائب ، واللمحات الخاطفة فلا غرابة أمامه ولا غموض ولا أسرار !

والحظ والقدر فى رأى نابليون القائد المنتصر الموفق حقائق ميسور تحديدها ، وعلم النجاح أساسه أن تزن فى دقة وانتباه محتملات النجاح ومحتملات الفشل فى أية مسألة من المسائل ، ولكن كلما عظمت عبقرية الإنسان ، وسمت ملكاته كان الجزء المتروك للحظ فى حياته جد صغير وقد كان نابليون مغامراً جريئاً ، وهو لا يخفى ذلك بل يصارحنا به ، ولكنه كان يلعب لعبة علمية فى عناية تامة ، وبراعة تستدعى الإعجاب ، وكان يزيده جرأة وثقة بالنفس إلمامه بأصول تلك

اللعبة ، وتغلغله إلى دقائقها ، وكان يقول عن نفسه : « مقدرتى العظيمة قائمة على أنى أعرف أن الخط المستقيم أقرب من الخط المنحنى » وكانت تأهباته مقرونة على الدوام بالروية والتفكير ، وتقليب الأمور على جميع وجوهها ، وفحص نواحيها فحصاً تامًّا ، ووزنها وزناً دقيقاً ، والإحاطة بكل تفاصيلها وصغائرها ، ولاعتقاده أن حظه فى يده ، وطوع أمره ، كانت ثقته فى نتيجة اللعبة لا تتزعزع ، وكان يزيد هذه الثقة قوة وتمكيناً غلبة عقله على جسمه ، واستطاعته أن يحتمل العمل المرهق فى جلد وصبر دون أن يدركه إعياء أو تخذله صحته .

ولكن مر السنين ، وطول التجربة ، وتوالى الحوادث ، جعلته ينحرف عن تفسير المصادفة هذا التفسير الهين ، وعن تعليل القدر تعليلا واضحاً بسيطاً سطحيًّا ، وصار القدر فى نظره رويداً رويداً شيئاً غير ملموس ، وبدأ يأخذ صورة القوى الغامضة الخفية التى يرى نفسه إزاءها مسلوب القوة ، منهوب الإرادة ، وصار يدرك أنه مدفوع ومجبر ومسوق .

وأخذت نفسه تمتلئ بهذه القدرية اليائسة العميقة ، وتباعدت فى تفكيره فكرة القدر عن فكرة النجاح ، وأخذ يعتقد أن الحظ بدأ يخونه ، وأخذت ثقته بنفسه تضعف وصار يعزو ما يلحقه من الفشل إلى الظروف والحوادث .

وكان كلما مرت السنون ، وتكاثرت الأحداث ازداد شعوره بعثار جده ، وأفول نجمه ، حتى جاءت معركة واترلو وقضت على نفوذه ، وكانت من المعارك التى لعب فيها الحظ دوراً ملحوظاً ، وكان يقول قبلها بقليل « هاتف داخلى ينبئنى أن النتيجة سوف لا تكون سارة ، وإنى أعزو فشلى إلى أفول نجمة حظى » وقد أذعن بعد ذلك للإنجليز ، وألقى إليهم مقادته ، وكان فى وسعه أن يسلك مسلكاً آخر ، ولكنه آثر ذلك نزولا على حكم الحظ ، واستسلاماً للأقدار ، ولاعتقاده أن العقبات التى كانفى مستهل حياته يزيلها من طريقه فى سهولة قد

أصبحت فى نظره عقبات كأداء لا سبيل إلى التغلب عليها ، وعادت إلى قاموسه كلمة « مستحيل » بعد طول إهمالها وحذفها !

كان يشعر فى ذلك الوقت بأنه مقيد فى أصفاد الظروف والأحوال ، أسير فى سجن الزمن لا يستطيع الخلاص من أسره ، ولا يقوى على صدع قيوده وتفكيك أغلاله ، وكان حينئذ يرى أنه إذا أراد القضاء أمراً فلا مرد لمشيئته ولا معقب لحكمه ، والجهاد ضد الأقدار عبث لأن ما كتب قد كتب ولا بد من نفاذه ، وليس فى طاقة جهودنا وإرادتنا أن نغير حرفاً واحداً من المكتوب فى سفر الأقدار !

وكان يرى فى وجوده بتلك الجزيرة الصخرية المشؤومة ، وفى الآلام التى يكابدها دلائل واضحة على أن القضاء لا يغالب ، وكيف لا ؟ ألم يعد القضاء له هذه الخاتمة لأن حياته بدأت لامعة متألقة ؟

ولكنه مع ذلك كان عندما يتناول تاريخ غيره من عظماء الرجال وأبطال التاريخ يعلل فشلهم بما طرأ من التغير على حالتهم النفسية وبواعثهم الدخيلة ، ويأبى أن ينسب فشلهم إلى الظروف الخارجية ! فلماذا فشل قيصر وهانيبال والإسكندر؟ وهل اللوم على الظروف والمصادفة ، أو كان حظهم هو سبب ذلك ؟ يجيب نابليون على ذلك بقوله « نجاح الرجال العظماء لا يتوقف على الظروف والمصادفة ، وإنما هو نتيجة التفكير والعبقرية » ورجال القدر فى رأيه قد سيطروا على الحظ لأنهم عظماء ، ولأنهم كانوا يحسبون حساب كل خطوة ، ويسيرون على بينة من أمرهم ، وقد أخذ الفشل يلاحقهم لما خانوا نفوسهم ، وفقدت عبقريتهم قوتها ، وضعف نظرهم فى عواقب الأمور ، واختلت موازينهم ، وكانت هزيمتهم الخارجية فى الواقع نتيجة محتومة لانهيار صرح شخصيتهم الداخلية .

كان نابليون يفكر هذا التفكير فى مصير غيره من الأبطال ، ويعلل فشلهم هذا التعليل ، ولكن كان يحجم عن تطبيق ذلك على سيرته ، ويأبى أن يواجه به نفسه لأنه لا يريد أن يعترف بهزيمته الداخلية ، وخيانته لنفسه ، وكأنما كانت كبرياؤه الباقية لا تطاوعه على الإفصاح عن ذلك !

وقد كان فى صدر حياته يرى أن المصادفة مهيمنة على شؤون العالم ، وعلى الإنسان أن يخضعها ، ويتخذها وسيلة لتحقيق أغراضه ، وكان عالمه واضحاً ميسور الفهم لا يحيط به خفاء ، ولا تكتنفه أسرار ، وكان عقله المادى النزعة يحاول أن يفسر الدنيا فى ضوء الحقائق العارية المكشوفة ويخضع مظاهرها للعقل .

ولكن على توالى الأيام أخذ يشعر بوجود قوة غامضة مسيطرة على حياة الناس لا يستطيع أن يدرك كنهها ، ولا أن يسبر غورها لأنها من وراء طاقة العقل . وأخذ يظهر له أن جميع الحوادث مترابطة متصلة الحلقات ، وأنها خاضعة ليد خفية تحركها . ولذا قال فى حديث له مع دوقة ويمار « صدقينى أن هنالك عناية ترشدنا ، وما أنا إلا آلة فى يدها ! » .

وهكذا أخذ يقرن فكرة « القدر » إلى فكرة « العناية » ، وأخذينمو فى نفسه شعور صوفى بهذه العناية التى بدأ يدرك وجودها ، ويستشف أثرها ، ولذا نشأت فى نفسه إلى جانب إدراكه المادى للحياة عناية بشؤون الدين ، واحترام للكتب المقدسة ، وكان يقول « إننا مادة ، وليس بعد الموت سوى الموت » ولكن كان فى نفس الوقت يدمن قراءة الإنجيل والكتاب المقدس .

وهذا الشعور بالقدرية الذى استولى عليه فى سنواته الأخيرة طبع أقواله وأعماله بطابع خاص ، ففى سنة ١٨١٣ كان يردد قوله « إن الحظ يعمل ضدى » وصار يعتقد أن سقوطه ضربة لازب ، وكان يرفض أن يعترف بالعوامل المختلفة التى أدت إلى فشله وسقوطه .

وقد قنع نابليون فى النهاية بحظه ، وارتضى المنفى فى الجزيرة النائية ، وكان يقول « لقد تركت فى الدنيا دويًّا كافياً ، وقد علت سنى وأصبحت أريد الراحة » وكان يؤمل — وقد أضاع كل شىء — أن يجد فى تلك الجزيرة هدوء النفس وراحة الضمير ، وكان يرى ذلك ميسوراً قريب المنال بعد التبعات الخطيرة التى اضطلع بحملها ، والمطامع المتعبة التى استهوته ، ولقد طوى مستقبله السياسى فهو الآن يستطيع أن يستمتع بلذة القراءة وجمال الأحلام !

ولكن سخرية القدر لا تريد له ذلك ، فهى ترسل إليه فى تلك الجزيرة رجلا عنيداً وطاغية صغير النفس وهو السير هدسن لو . وكان يطيب لهذا الرجل أن يظهر سلطته على نابليون فكان يقول « أنا آمر القائد بونابرت ! إنه أسيرى » .

فيرد عليه نابليون من عزلته قائلا فى حدة وغضب « كلا ، لست أسير أحد ، إنما أنا ضيف الأمة الإنجليزية ! » .

فيجيبه الحاكم « هذا هراء ، وسأرغمه على طاعتى أو أضعه فى القيود والسلاسل » ويؤيده مساعده قائلا « نعم هو طريد وسجين ، والحاكم محق فى معاملته بهذا الأسلوب ! » .

وكان هدسن لو يفتنُّ فى تضييق الحصار على نابليون ، وتشديد الرقابة عليه ، وكان يجتهد فى أن يجعل نابليون شاعراً بأثر الرقابة ووقعها حتى قال أحد أصفياء نابليون « إنهم يقتلون بوخز الإبر رجلا عجزت عن هزيمته جيوش أوربا » .

وفى آخر مرة التقى فيها هو والحاكم نشب بينهما جدل عنيف قال فيه نابليون لهدسن لو « بعد سنوات قليلة سيجر عليكم النسيان أذياله ، أنت واللورد كاسلرى واللورد باثرست ، وإن جسمى فى قبضة يدك ولكن روحى لا تزال حرة وجريئة كما كانت وأنا سيد أوربا ، وستكون أوربا هى الحكم العدل فى المعاملة التى عوملت بها ، وسيرتد الخجل منها إلى الشعب الإنجليزى ، وإن عداوة اللورد

باثرست هى التى أرسلتك إلى هنا ، وأنت لست قائداً وإنما أنت كاتب أركان حرب ! » .

وحز ذلك فى نفس هدسن لو ، ونال منه فرد على نابليون قائلاً « أنت تضحكنى ياسيدى » .

نابليون : « ماذا ؟ أنا أضحكك ! » .

هدسن لو : « نعم ياسيدى ! وأسفى شديد لخشونة أخلاقك وأتمنى لك يوماً سعيداً » .

وعد انصرافه التفت نابليون إلى مونتهولن وقال « لقد قلت أكثر مما يجب ! وسأمتنع عن لقاء الحاكم مرة ثانية لأنه يغضبنى ويخرجنى عن طورى ! » .

وحافظ على وعده ، وظل لا يراه لمدة خمس سنوات ، ولم ير هدسن لو نابليون بعد ذلك إلا وهو ميت مسجى على فراشه .

وهكذا ظلت الحرب التى ظن أنه قد نبذها وباعدها بقبوله المنفى تلاحقه وتأبى أن تتركه ، وظلت الحرب ناشبة إلى يوم مماته ، ولكنها كانت حرباً ضد الطغيان الذى حاول أن يفرضه عليه هدسن لو ، كانت حرب صغائر وسفاسف يثيرها مستبد ضئيل الشأن على رجل فقد كل شىء ، وعزيز قوم ذل ، وصار نابليون يعتقد أن هذه المعركة هى الحلقة الأخيرة من المعارك التى دامت طوال حياته ضد الإنجليز ، وكان هدسن لو فى نظره يمثل الإنجليز .

قال لليدى مالكوم « لقد لبست تاج فرنسا الإمبراطورى وتاج إيطاليا الحديدى وإنجلترا الآن تقدم لى تاجاً أروع وأعظم وهو « إكليل الشوك » فالإهانة والتحقير والاستبداد تزيد فى شهرتى ، وإنى أعزو إلى إنجلترا تألق مجدى » وكان يعزى نفسه بقوله « غيرى من الناس يخفضهم فشلهم ، أما أنا فقد رفعنى الفشل إلى أسمى المراتب » ولم يستطع أن يواجه حقيقة أن حبسه كان ثمناً تقاضته الأقدار

لطموحه المتناهى ومطامعه البعيدة وللحيوات البشرية التى حطمها وأسال دماءها فى حروبه العديدة ، ولكنه كان فى منفاه وقد أثقلته المصائب وأدته الأحزان أشجع منه فى أيام مجده والدنيا عليه مقبلة .

كان عظيما وجلداً صبوراً ، كان رجلا ، وقد صبر صبراً جميلا على سخرية الأقدار ! .

بين تاليران ونابليون

فى الحقبة الممتدة من أواخر القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر تعرضت فرنسا لتقلبات جمة ، وتداولت الحكم فيها حكومات مختلفة الشيات ، متباينة المقاصد ، منها الملوكية العتيدة على الطراز القديم ، ومنها الحكومات الثورية الوشيكة الأجل السريعة الدثور ، ثم حكومة الديركتوار ، وحكومة القنصلية ، والإمبراطورية النابليونية ، ثم عودة البوربون وحكومة لويس فيليب ، وكانت هذه التغيرات المتتابعة لا تخلو فى أغلب الأوقات من العنف والشدة . وفى خلال هذه الحقبة الحافلة بالتقلبات ، والحافلة بالأحداث الجسيمة ، والخطوب الجليلة ، كان يظهر على الدوام رجل بارز الشخصية ، ملحوظ المكانة ، عظيم الخطر ، وهذا الرجل هو السياسى الفرنسى الشهير تاليران ، والرجل الذى استطاع أن يلعب مثل هذا الدور ، ويرفع رأسه فى أثناء هذه الموجات المتتابعة لا بد أنه كان رجلا قوى الشخصية ، موفور الحظ من الدهاء وسعة الحيلة ، والقدرة الفائقة على التقلب حسب الظروف والملابسات ، مع الذكاء الخارق والكفاية التامة التى جعلت الحكومات المختلفة الألوان تستعين به وتعتد برأيه .

والواقع أن هذا الرجل كان أعجوبة من أعاجيب الدهر ، ولغزاً من ألغاز التاريخ والسياسة ، فلا تزال تختلف الآراء وتتعارض الأحكام والتقديرات فى تفسير أعمال هذا « الأبى الهول » . فهو مثلا فى رأى المؤرخ الإنجليزى المستر دف

كوبر « وطنى صادق الوطنية ، وسياسى راجح العقل » ، والبحاثة الألمانى الهربلى (Blei) لا ينكر عليه كفايته السياسية ، ولا يجحد حكمته ، ولكنه يرى أنه لم يمزج نفسه بوطنه وإنما مزج وطنه بنفسه » والكونت دى سنت أولير يرى فيه « نهازاً للفرص بارعاً ، توجهه فى ذلك مصلحته الخاصة » ، أما السير جون ماريوت فيرى أن شهرته تزداد سمواً كلما أمعنا النظر وأطلنا البحث فى حياته العامة ، أما حياته الخاصة فإنها تتطلب منا التسامح والغفران ، ويسلم دف كوبر بأن الرجل كان يخون سادته ، وينصب لهم الحبائل والأشراك ، ولكنه يعتقد أنه كان فى أعماق نفسه مخلصاً لغرض أسمى من أغراض هؤلاء السادة ، وأبقى من النظم المتقلبة ، والحكومات الزائلة ، وهذا الغرض الأسمى هو مصلحة فرنسا ذاتها ، بل يذهب إلى أنه كان يرمى إلى غاية أكبر وأجل من مصلحة فرنسا وهى المثل الأعلى لتحقيق السلام ونشر أعلامه فى ربوع أوربا ، وقد بنى دف كوبر دراسته القيمة لحياة تاليران على أساس هذا التصور ، وحلل أعماله ومواقفه فى ضوء هذه النظرية .

وقد ولد تاليران سنة ١٧٥٤ فى أسرة من أعرق الأسر الفرنسية ، وحدثت له فى طفولته حادثة أصيب من جرائها بالعرج ، ونحى عن ميراث الأسرة وأوثر عليه أخوه الأصغر ، واضطر إلى أن ينشد المستقبل فى الكنيسة ، ولم يكن بطبيعته صالحاً لذلك لأنه كان حر الفكر ، فولتيرى النزعة ، مخلوع العنان فى طلب المتعة والتحلل من قيود العرف وأوضاع المجتمع ، ولكن القرن الثامن عشر كان يألف مثل هذا التناقض ولا يرى فيه كبير بأس . ونبه شأنه بين رجال الكنيسة ، ثم خاض غمرات السياسة وخالط الثائرين ، وظهرت مواهبه فى الحياة العامة ، وكان معروفاً فى المجتمعات الخاصة بسرعة الخاطر ، وحديثه المستعذب ، وسمته الأرستقراطى ، وتدلهه فى هوى خليلاته الكثيرات ، وعشيقاته الفاتنات ، وكان

مع ما عرف عنه من تقلب يحفظ عهدهن ، ويرعى ذمامهن ، حتى بعد أن يذهب جمالهن وتودعهن بهجته ورواؤه .

ولما بدأ عهد الإرهاب فى فرنسا اضطر إلى الهجرة لانحداره من أسرة أرستقراطية ، وذلك برغم صداقته لدانتون وعلاقته بزعماء الثورة . وزار إنجلترا والولايات المتحدة ، ثم عاد إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ حيث عين وزيراً للخارجية فى حكومة الديركتوار ، وسرعان ما لحظت عينه القائد الشاب نابليون بونابرت ، وقد أدرك بفطنته النافذة وبداهته الموفقة أن هذا الشاب هو رجل الساعة ، وبطل الموقف ، فعاون على إحداث الانقلاب الذى مكن نابليون من القنصلية ، وحفظ نابليون له هذه اليد فاستبقاه وزيراً للخارجية فى عهد القنصلية وفى عهد الإمبراطورية .

وكان هو الوحيد بين رجال نابليون الذى يستطيع أن يقف لهذا المارد الكورسيكى ، ويطاوله ويقتحم حومته لتجاربه الناضجة ، وبصره بأعقاب الأمور ، وعراقة الأسرة التى ينتمى إليها ، ومكانته العالية فى نفوس أقيال أوربا العباهلة ، وأمرائها الأرواع ، وساستها الأفذاذ ، وسائر رجالها الأعلام . وكان نابليون يشعر بحاجته إليه لمعرفته الواسعة بالتقاليد المرعية ، ومستلزمات السياسة الدولية ، مع الكياسة فى تصريف الأمور ، واللباقة فى حل المشكلات ، قال عنه نابليون « فيه الكثير من الصفات اللازمة لمباشرة المفاوضات ، فله تجربة رجل الدنيا ، ودراية بالبلاطات الأوربية ، وعنده الذكاء والألمعية ، وشىء آخر أكثر منهما ، وهو ذلك المحيا الذى لا ينحسر قناعه ولا تنم على شىء أساريره ، ثم الاسم العظيم الذى يحمله » ونلمح من ذلك أن إعجاب نابليون به كان من قبيل إعجاب النقيض بنقيضه ، فقد كان نابليون محتدم المزاج نارى الطبع ، ينقصه هدوء تاليران الذى كان لا يروّع سر به ، ولا تهيل الحوادث من جانبه ،

واقتداره على ضبط نفسه .

وكان نابليون فى طالعة أمره يركن إليه ، ويثق به ، وهو يمحضه النصح ، ويصارحه الرأى ، دون أن يتخشع له أو أن يتضاءل أمامه ، وقد حرض نابليون على ملاينة البريطانيين ونصح له بأن يصالحهم ، وأن يعمل على تصفية الجو بينه وبينهم ، وذلك لتوطيد السلام واستتباب الأمن والطمأنينة ، ولكن نابليون أثمله النصر ، وطار بلبه حب الحرب ، وغره إجلاب القواد حوله ، وتفانيهم فى طاعته ، فركب رأسه ، واندفع فى الطريق الذى ازدلف به إلى الهاوية السحيقة .
وكان تاليران يرى أن سلامة أوربا ومصلحة فرنسا أجل شأناً من الولاء لنابليون ، ولذا بدأ منذ سنة ١٨٠٧ يأتمر بسيده ، ويعمل على تقويض ملكه ، وهدم دولته ، وأصبح عيناً للقيصر الإسكندر الأول عاهل الروسيا ، يوافيه بأخبار سيده ، ويفضى إليه بأسراره واتجاهاته ، وأحس نابليون خيانته ، وعرف دغل سريرته فتركه فى (١) منصبه الجديد ولم يبادر إلى عزله وإقالته . ولكن لماذا لم يعزله نابليون ويبعده عنه ليأمن دسائسه ويتقى خطره ؟ ومن الحكم المأثورة عن مكيافلّى قوله : « إن الأمير إما أن يسحق ويهلك ، وإما أن يحتضن ويقرب ، أما أنصاف الحلول فإنها ضارة به » ولم يدرك نابليون ذلك على ما يظهر إلا فى أيامه الأخيرة فى فونتينبلو حيث قال : «كان يلزم إعدام هذا الخائن — تاليران — شنقاً أو رمياً بالرصاص » ، ولعل نابليون كان يرى الاحتفاظ به وتقريبه لفرط حاجته إليه مع حكمه عليه بأنه « دساس وأنه لا أخلاق له وأنه موفور الحظ من الذكاء ، وأنه خير وزرائه ومستشاريه » .

وكان نابليون شديد الاعتداد بنفسه ، والثقة بقوته ، فهو يعتقد أنه بمأمن من دسائس تاليران ، وأنه يستطيع سحقه حينما يشاء ، وقد أخطأ نابليون فهم طبيعة

(١) بعد عودة نابليون من تلست أراح تاليران من أعباء وزارة الخارجية ورقاه إلى منصب « نائب المنتخب الأعظم » .

هذا الرجل . فقد حاول سحقه وإخضاعه لمشيئته فى ذلك المشهد التاريخى المأثور ، والحادث الذى لم يستطع تاليران أن ينساه أو يغتفره وهو حادث يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٠٩ ، وذلك أن نابليون كان فى إسبانيا يحاول الإجهاز عليها وإتمام غزوته . فنمى إليه أن تاليران وفوشيه وزير الداخلية قد تهادنا واتفقا ونسيا — إلى أمدما — ما كان بينهما من تنافس وخلاف . وأن فوشيه شوهد فى منزل تاليران . وأنه تلقاه بالترحاب وأقبل عليه وخلا به طويلاً . وتسايراً على مرأى من الحاضرين مما أثار الدهشة وأطلق الأقاويل والإشاعات . فهمّ ذلك الخبر نابليون وعناه وأقض مضجعه .

تاليران يضع يده فى يد فوشيه ويتزاوران ويتشاوران ، خطب جليل وواقعة سوداء ! فغادر نابليون إسبانيا مسرعاً وعاد إلى باريز ووصل قصر « التولرى » يوم ٢٣ يناير ، وبعد ذلك بأيام قلائل عقد اجتماعا دعا إليه أعيان الدولة والوزراء وبينهم تاليران وفوشيه ، ويدأ نابليون حديثه بملاحظات عامة أبان فيها أنه ليس من حق رجال دولته أن يروا رأيا غير رأيه ، وأن الشك فى آرائه نوع من الخيانة ، وأن مخالفته هى الجريمة بعينها ، ثم اندرأ على تاليران بالشتائم الجارحة ، والسباب المقذع ، واستمر مدة تقارب نصف الساعة وهو لا يترك نقيصة من النقائص إلا قذفه بها ،ولا جريمة من الجرائم إلا رماه بارتكابها ، فهو لص وجبان وخائن ، واتهمه بأنه لم يخلص فى أداء واجب واحد من واجباته ، وأنه خدع كل من عمل معهم . وأنه لا يؤمن بالله . وأنه لا يحجم عن بيع أبيه . وألقى عليه تبعة قتل دوق دانجيان وحرب الجزيرة . وساءه ما يبديه من عدم الاكتراث وأغاظه . فعيّره بعرجه وخيانة زوجته . ثم هز قبضة يده كأنه كان يهم بضربه وقال له « إن فى وسعى أن أحطمك كما أحطم الزجاجة . وإنى على مثل ذلك لقادر . ولكنى أحتقرك الأحتقار كله فلا أجشم نفسى هذا التعب » كل ذلك وتاليران متكئ على

منضدة صغيرة إلى جانب الموقد ساكن الطير ، ثابت الجأش ، كأنما كان المقصود بهذا السيل المنهمر من الشتائم غيره من الناس . وهال ذلك الحاضرين فقد سلك الإمبراطور سلوكاً غير لائق وتناسى وقاره ، وانتثر المجلس فى عقب ذلك . والتعليق الوحيد الذى قاله تاليران لأحد الذين كانوا حاضرين وهو يظلع فى خروجه من رواق القصر «مما يؤسف له أن يكون مثل هذا الرجل العظيم هكذا سيىء النشأة» وفى المساء روى الخبر لصديقته مدام دى لافال . فأومضت عينها ببريق الغضب وهى تصغى إليه ثم قالت فى النهاية وهى مغيظة محنقة : لقد أصغيت لذلك كله ولم تحاول أن تعلوه بكرسى أو أن تقذفه بشىء آخر ! فأجابها تاليران غير عابئ : «لقد فكرت فى ذلك ولكنى كنت أكسل من أن أحاوله» وظل تاليران بعد ذلك على سابق اتصاله بنابليون ولم ير ما يدعو إلى مقاطعته ومباعدته ! .

وفى مؤتمر فينا تجلت مواهبه واستطاع أن يرفع رأس فرنسا المغلوبة على أمرها ، وأرغم بدهائه وحسن مدخله الوزير الإنجليزى كاسلرى على أن يضمه إلى صفه فى جانب النمسا ليكونوا جميعهم جبهة فى وجه مطامع روسيا وبروسيا .

ولم ينس تاليران إهانة نابليون له ، ولم يغتفرها له ، ومن المحتمل أن يكون هذا الرجل قد عمل على إسقاط نابليون انتقاماً لشخصه ، وشفاءً لحزازته ، لا لمصلحة فرنسا وأوربا كما ادعى بعد ذلك . وقد ظل تاليران يمقت نابليون أشد المقت ، وقد روى عنه الحديث الآتى جان جبرييل إينار فى مذكراته عن مؤتمر فينا .

قال تاليران : «إنى لأذكر باشمئزاز مؤتمر إرفرت حيث اجتمعت العواهل تنتظر فى ذلة وضراعة تقديم فروض الطاعة للرجل الذى لم يترك فرصة تمر دون أن يتعمدهم بالإهانة . وقد كان بونابرت شديد الشعور بقوته المنيفة ،

ولكنه لم يكن عظيم النفس ، فكلما أفرط إنسان فى الخضوع له تخطى إليه بالإساءة ، وغالى فى امتهانه ، وفضلا عن ذلك كان الجبن من صفاته الأخلاقية الواضحة ، وكان جباناً فى كل مظاهر طبيعته » .

فأظهرنا دهشتنا البالغة عند تكراره ذلك القول فأصر تاليران على رأيه وقال : « نعم ياسادة لقد أظهر جبناً فى كل موقف » .

فقال له المسيو دفرنوا D'Ivernois : « مهما يكن من الأمر فإن شهرته على نقيض ذلك » فقال تاليران : « لأن أحداً لم يعرفه معرفتى به ، وفى وسعى أن أقدم لك ما تشاء من البيانات ، فمن أمثلة ذلك أنه كتب إلىّ خطاباً فى المساء قبل موقعة (أوسترلتز) ينم على الخور وتمكن الضعف منه ، وفى الصباح بعد انتهاء المعركة كتب إلىّ خطاباً غامضاً ملتبساً ، وفى أثناء القتال فى جروس أسبرن اختبأ خلف سرحة وطاش صوابه ، وعندما خانه الحظ فقد همته ومضاءه . وهذا الرجل الذى كانت ثقته بنفسه فى الرخاء لا تحد ، كان عندما يعبس له الحظ يستجدى كل إنسان النصيحة ، ولا يترفع عن مشاورة صغار الضباط وسواس الخيل » .

قال تاليران ذلك بمرارة وغيظ ، فألقيت إليه بهذه الملاحظة : « إذا صح أن نابليون كان جباناً فكيف اتفق أنه كان ولوعاً بركوب الأخطار ، والتعرض لعظيمات الأمور ، وكان على الدوام مشغول البال بإثارة حروب جديدة ؟ » .

فتحاشى تاليران الإجابة عن السؤال وأخذ فى ناحية أخرى فقال : « كان جبنه يظهر فى كل شىء ، فعلى المائدة كان لا يشرب الماء من الكأس القريبة منه ، ويعمد إلى الكأس الموضوعة فى مؤخرة المائدة »

فقال المسيو بكتيه : « ولكنه فى باريز كان يسير منفرداً أو مصحوباً بحاشية قليلة » .

فقال تاليران : « لا تصدقوا ذلك » .

فقلت له : « ولكنى أتذكر ياصاحب السعادة أنى لقيته وحده مع ديروك » .

— يحتمل أنه كان يدور فى خلده أنه لا يستطيع أحد معرفته ، ولقد بلغ منه الجبن أنه كان عندما يسافر يبالغ فى الحيطة ضد القتل ، ولقد سافرت معه فى نفس العربة وكانت غاصة بالفرش مبطنة بالورق ليكون ذلك كله وقاية له من القنابل .

فقال بكتيه : « ما تقررونه سعادتكم يزيد الأمر غرابة لأن نابليون وفق فى إقناع الجميع بشجاعته » .

استطاع ذلك لأنه لم يوجد إنسان أمهر منه فى التمثيل ، فهو غاش مخادع فى الصميم ، وأعظم مواهبه هى عبقريته فى الغش والتدليس ، ولقد عزا نجاحه فى الدنيا إلى دهائه قبل كل شىء ، وشخصيته كلها تنم على ذلك ، وكان عندما يمشى يحرك جسمه المتمعج ويهزه هزاً ، وكان له بنية الأفعى ومكرها » .

وبين هو يقول ذلك هب واقفاً وحاول بجسمه المترهل ، وساقيه المتهدلتين المعقوفتين أن يقلد مشية نابليون .

فسأله المسيو دفرنوا : « إذا لم يكن نابليون شجاعاً فكيف اتفق أنه أحرز الشهرة بين جنوده ؟ » .

— لقد حل المكر محل الشجاعة ، وكانت له قدرة فائقة على الاستفادة من الحوادث التافهة ، واستجاشة حماسة رجاله بها .

« وقد حدث لما عاد من المفاوضات التى انتهت بمعاهدة كامبو فرميدو أن أقامت الحكومة حفلة عرض عسكرية تكريماً له ، فلما دخل ساحة قصر لكسمبرج فى غرة الظهر تظاهر بالتفزع ، وزعم أنه رأى نجمة يتلألأ نورها فوق القصر حيث يجلس ، ووفق فى إقناع حاشيته إلى حد أن كثيراً من الحاضرين

ومنهم المسيو هوتريف — وهو رجل أثق به ثقة كبرى — قالوا أيضاً إنهم أبصروها ، بل هناك ما هو أكثر من ذلك ! فى أثناء موقعة أسترلتز زعم نابليون أنه رأى نفس النجمة التى أبصرها تتلألأ من قبل فوق ساحة قصر لكسمبرج ، فتوهم كثير من الضباط أنهم رأوها وشعروا بأنهم واثقون من الفوز ! ونابليون كان يستطيع أن يتقن الغش ، ويحسن الحيلة ، ولكنه لم يكن شجاعاً ألبتة » .

فقلت : « إذا لم يكن شجاعاً فكيف حدث أن مجرد شهرته أثرت فى الجيش النمساوى حتى خارت عزائم وحداته عندما ذاع خبر انضمامه إلى جنده ! » .

فلم يحاول تاليران تفسير ذلك ، وقال : « هذه حقيقة لا أستطيع إنكارها ، ففى سنة ١٨٠٩ كان تحت قيادة ستاديون جيش من أحسن جيوش الدنيا ، وكان تام الأهبة ، منسق الفيالق ، متحفزاً للهجوم ، ولم يكن مع نابليون جيش ، فجاء إلى رجنز برج وهو يكاد يكون منفرداً ، فاستطارت شهرته جنان البافريين ، وفتت فى عضد النمساويين ، وكان من جراء ذلك أن انهزموا هزيمة منكرة » .

وهكذا ناقض تاليران نفسه بدون أن يلحظ هذه الحقيقة لأنه كيف يستطيع إنسان مجرد من الشجاعة أن يغامر بشهرته وسلامته ضد قوات أكثر منه عدداً ويناجزها القتال ويستلحم لها فى معركة ؟ .

وهنا ينتهى الحديث الذى رواه إينار فى مذكراته .

وقد ظل تاليران يردد بقية حياته التى امتدت إلى سنة ١٨٣٨ أن ماكان حكيماً فى سياسة نابليون وخططه فهو من وحيه وتفكيره ، وثمرة إرشاداته ونصائحه ، وماكان خطأ وتهوراً فهو من عند نابليون نفسه ، ولكن أكثر المؤرخين لم يتفقوا على تصويب هذا الرأى ، لأن تاليران نفسه لم يكن مثالاً يحتذى فى صدق الحديث ورواية الأخبار .

لغز تاريخى

حول وفاة القيصر الإسكندر الأول

(هل كان القيصر الإسكندر والراهب كوزمتش شخصاً واحداً ؟)

بعد أفول نجم نابليون ، وانطواء صحيفته ، وعودة السلم والاستقرار إلى ربوع أوربا كان قيصر الروسيا الإسكندر الأول يرتسم فى خيال الأوربيين بطلا من أبطال التاريخ ، ويبدو لهم علماً من أعلام الإنسانية ، ونصيراً صادقاً للمثالية المحلقة ، والمطالب الروحية السامية ، وقد سره أن يصوره الخيال العام هذه الصورة الرائعة ، ويحبوه بهذه الثقة الغالية ، فقبل القيام بتمثيل هذا الدور عن طيبة خاطر ، وفى حماسة ملحوظة وعناية فائقة ، وكان مناظروه على مسرح السياسة الأوربية من ذوى العروش القديمة والمجد المؤثل هم الإمبراطور فرانسيس عاهل النمسا ، وفردريك ملك بروسيا ، ولويس الثامن عشر ملك فرنسا ، وكان يشاطره الظهور فى ميدان الحوادث من كبار الساسة فى ذلك الوقت مترنخ وكاسلرى وتاليران .

أما الإمبراطور فرانسيس فكان رجلا قد ألف الهزائم ، ورضى الإياب غنيمة فى حروبه مع نابليون ، واضطر أخيراً أن يزوج ابنته من ذلك الجبار الكورسيكى حتى يأمن عدوانه ، ويتقى غاراته المذلة للرقاب الراغمة للأنوف . وبعد نكبة روسيا سنة ١٨١٢ وتألب خصوم نابليون عليه كان هو آخر من اجترأ على الانضمام

إلى التحالف الذى تكون للقضاء على نفوذ نابليون وتحطيم قوته ، وكان الذى يحرك دفة سياسته ويدبر أموره هو السياسى المعروف مترنخ .

ولم يكن الملك فردريك شخصية توحى بالاحترام ، أو تبعث على التقدير ، ففى سنة ١٨٠٥ عندما كانت فرنسا توقع الهزائم بالجيوش النمساوية كانت بروسيا تقف موقف المتردد ، وفى السنة التالية هزمها نابليون هزيمة شنعاء فى معركة ينا ، وهدم ما وطده لها فردريك الأكبر من مناقب ، وما بناه من مجد ، واضطر الملك إلى الالتجاء بأقصى الشمال ، ولما علم فى سنة ١٨٠٧ بالتقاء نابليون والإسكندر فى تلست أرسل ملكته الحسناء لتستلين قلبى العاهلين وتستميلها إلى قضيته ، فلم يحرك ذلك نابليون الذى كان فى بعض المواقف يلعب دور السياسى الأصيل ، ويضع المصلحة فوق العاطفة . أما القيصر الإسكندر الأول المشبوب الخيال المتقد العاطفة ، الولوع بالفروسية ، فقد أخذته النخوة ، وهزته الأريحة ، وعزّ عليه أن يتخلى عن الجمال فى مصابه ويخذله فى محنته ، وكان نتيجة ذلك أن عقدت معاهدة أعلن فيها نابليون أنه احتراماً لرغبات الإسكندر يسمح لفردريك وليم بأن يسترد جزءاً من مملكته السابقة . وكان شكر فردريك للإسكندر من أجل ذلك حاراً باقياً . ولكنه مع ذلك لم يكن أهلاً للاعتماد عليه لكثرة تردده ، ولذا كان يزدريه حلفاؤه ، ولا يثق به أصدقاؤه .

أما لويس الثامن عشر فلم يكن محبوباً ولا حائزاً للاحترام ، فقد أعادته أوربا المتحدة إلى عرش آبائه ، ولكنه أمضى سنى نفيه بين أعداء فرنسا ينتظر فى شوق وقلق هزيمة أمته ، ونكبة بلاده ، لاسترداد عرشه . وكانت حاشيته من الأمراء والأشراف الذين لج بهم الفرار من الثور ، والذين كانوا يجهلون الجهل كله فرنسا التى خلقتها الثورة . وأوجدها نابليون . ولذا لم يكن محبوباً من أمته ، وكانت الأمم الأجنبية لا تخشى بأسه ، ولا تعتز بصداقته ، وقد أجلسته على العرش لأن

ضعف مكانته كان يبعث فى نفوسها الأمل فى السلام المنشود الذى سلبتهم إياه قوة نابليون ؛ هؤلاء كانوا منافسى الإسكندر من الملوك ! .

وفى مؤتمر فينا لم يستطع أقطاب ساسة أوربا الثلاثة مترنخ وكاسلرى وتاليران أن يؤثروا فيه ، أو يغلبوه على أمره ، وينزو شيطانهم على شيطانه ، فقد كان نداً لهم فى المناورات السياسية ، وكان ملك بروسيا يتبع ظله ، ويقفو أثره ، برغم نصائح وزرائه . وقد حذق فنون السياسة وتلقى أصولها على جدته كاترين العظيمة ، وهى من أقدر الملكات اللواتى جلسن على عرش روسيا ، وكان أبوه القيصر بولس الملقب بالمجنون ، وقد أخذته جدته منذ مولده وأشرفت بنفسها على تنشئته لأنها أدركت بثاقب بصرها ، وصادق فراستها ، أن بولس غير صالح للملك ، وكانت تتوق إلى تخطيه ونقل وراثة العرش إلى الإسكندر ، ولم يكن يخشى على الإسكندر من مقارعة الساسة والنزول إلى ميادين المؤتمرات الدولية .

وكانت ثقافته أسمى مستوى من ثقافة أمراء عصره ، فقد علمته جدته استنارة القرن الثامن عشر ، وجعلته ملماً بالأفكار التى سادت ذلك القرن ، وتناولت الحرية السياسة ورد السيادة إلى الشعب ، وما إلى ذلك من الأفكار التى مهدت السبيل للثورة وهيأت لها العقول ، وكان يستطيع التحدث عن كانت وبستالوزى ، وكان أستاذه الذى تولى تثقيفه سويسرياً اسمه لا هارب ، وكان رجلا حسن التفكير خالص النية ، وكان يؤمن بالديمقراطية ويعجب بالثورة الفرنسية ، وأحسن الظن بنابليون فى أول أمره ، وكان بوجه عام يميل إلى اتباع الحق ، ولم يكن ما بينه وبين القيصر بولس عامراً ، وكان الإسكندر فى نفسه أثيراً ، ولكنه برغم ذلك لم يرتض أن يقر الملكة كاترين على خلع بولس من ولاية العهد وترشيح الإسكندر لها وقد أدى ذلك إلى إبعاده .

وجلس بولس على العرش أربع سنوات ، وكانت سنوات موقرات بالرعب

والفزع والقلق ، وتكونت أخيراً مؤامرة لقتله والخلاص من عسفه ، وعلم بها الإسكندر فرجا من القائمين بها أن يكتفوا بعزله ، ويمسكوا عن إراقة دمه والقضاء على حياته ، ولكن ذلك لم يكن سبيلا مأموناً ولا خطة ميسورة ، ولذا قتلوا القيصر بولس وتركوا الفرصة سانحة للإسكندر ، فأبعد عن البلاط أكثر الذين كان اشتراكهم فى المؤامرة معروفاً بارزاً واكتفى بذلك . وتنفست روسيا الصعداء ، واستقبلت عهد الإسكندر باستبشار وسرور ، ولكن هذه الحادثة تركت فى ضمير الإسكندر جرحاً دامياً لم يبرأ ولم يندمل ، وكان له أثر شديد فى الروح الدينية والنزعة الصوفية التى غلبت عليه بعد ذلك ، وأخذ ظهورها يقوى ويشتد بعد مؤتمر فينا ، واستولى عليه انقباض شديد وحزن داخلى ، وتغشت حياته سحائب من الهموم والأكدار .

وما عرفته الدنيا عن الإسكندر فى النصف الأول من حكمه كان نقيض ذلك ، فقد كان دائم المرح كثير الاستبشار ، غالياً فى التأنق ، محباً للظهور حريصاً على أن يقترن حكمه بانتصار الأفكار الحرة والنزعات السامية .

ولما تسنم العرش فى سنة ١٨٠١ كانت سنّه لا تتجاوز الواحدة والعشرين ، ولم تكن له خبرة مستفيضة بشؤون الدولة فاستدعى لاهارب ، وحاول بمساعدته أن يبدأ عهد إصلاح شامل ، ونجح فى إزالة المساوئ التى خلفها حكم أبيه ، وقلل الرقابة على الأفكار ونهض بالتعليم ، ولكنه لما واجه مسألة إلغاء العبودية ، وتحرير الفلاحين ، والأخذ بأساليب الحكومات النيابية ، وجد عقبات يصعب التغلب عليها . وحارب نابليون فى سنة ١٨٠٥ و ١٨٠٦ حرباً غير موفقة ، فقد هزم نابليون جموع النمسا والروسيا فى معركة أسترلتز ، وهزم البروسيين والروسيين فى معركة فريدلاند ، وقد أدى ذلك إلى صلح تلست سنة ١٨٠٧ وظهور الصداقة بين عاهلى الشرق والغرب ، وكان كلاهما فى بادئ الأمر يعتقد

بإخلاص الآخر وصدق سريرته ، ولكن بعد افتراقهما بدأت تتكاثر المشكلات ، ويدب دبيب الخلاف ، فالإسكندر الذى كان يحارب الترك حرباً منتصرة أراد أخذ مولدافيا وولاشيا ، ولكن نابليون كان لا يرى الإفراط فى الاساءة إلى الأتراك خشية أن يدفعهم ذلك إلى الارتماء فى أحضان الإنجليز ، وأراد أن يرضى الإسكندر على حساب بروسيا ، ولكن الإسكندر لم يقره على ذلك لما أسلف من وعود للملكة لويزا الحسناء ، وحاول نابليون أن يسحر لب الإسكندر ، ويثير خياله المتوثب ، فعرض عليه مشروعاً رائعاً ، وهو تقسيم تركيا والوصول إلى الهند ، وقد لمس ذلك جانب الطفولة فى خيال الإسكندر الذى كان لا يزال يستمتع بأقاصيص ألف ليلة ، فاستجاب لنابليون ، ولكنه مع ذلك لم يخدع عن أغراضه ، وأجابه بأنه يريد فى بادئ الأمر وقبل كل شىء آخر أن يملك مولدافيا وولاشيا والقسطنطينية ، ويتعهد بعد ذلك بمساعدة نابليون فى سوريا ، ولما تعذر ذلك الاتفاق التقيا فى إرفرت ليفضا الخلاف ، ويعيدا الصفاء ، وحاول نابليون أن يؤثر فى الإسكندر ، ولكن إصرار نابليون على رفض تسليم مولدافيا وولاشيا أشعر الإسكندر بأن صداقته قليلة القيمة ، غير مرجوة النفع ، فلما شكا نابليون إليه بعد ذلك الإخلال بشرائط الحجر البحرى الذى كان يريد فرضه على أوربا نكاية فى الإنجليز أنكر الإسكندر ذلك فى صورة خشنة ، وأسلوب جاف استغضب نابليون ، وأثار شديد حنقه ، وجعله يقود جيشه الكبير ليغزو الروسيا ، وهلك معظم الجيش فى عودته الفاشلة المحزنة ، فهللت أوربا للإسكندر ، واعتبرته منقذها من الدمار ، ومخلصها من الذل والهوان ، وسارت بعد ذلك جيوش الحلفاء إلى باريز .

وأظهر الإسكندر نبلا فى معاملته لفرنسا فى معاهدة باريز ، واتفق أنه التقى بعد ذلك فى سنة ١٨١٥ وهو فى طريقه من فينا إلى جيوشه ، بالبارونة كرودنر ،

وهى امرأة كانت تتظاهر بالتدين ، وتدعى التنبؤ ، فصارحته بأنه خاطئ أثيم وأنه لم يخفض من كبريائه ، ولم ينهه عن مطامعه ، وكان لوعظها أثر شديد فى نفسه ظهر واضحاً فى استمساكه بفكرة الاتحاد المقدس فى مؤتمر فينا ، وامتنعت إنجلترا عن الدخول فى ذلك الاتحاد . وقد لحظ مترنخ هذه الحالة النفسية الجديدة التى طرأت على الإسكندر ، وصارح بذلك كاسلرى قائلا : «لقد أصبح عقله مدخولا» .

وهذه النزعة الدينية السقيمة جعلته يمقت الأفكار الحرة ويقلب لها ظهر المجن ، ويؤثر الرجعية ويأخذ بأسبابها ، ولم يلبث أن مل مدام كرودنر ، ولكنه وقع بعد ذلك تحت تأثير غيرها من محترفى الدين ، وأدعياء الوعظ والإرشاد ، ودراويش الجذبة والشعوذة ، وفى سنيه الأخيرة شدد الرقابة على المطبوعات ، وضيق نطاق التعليم ، وحد من حرية الجامعات ، وكان وزيره أركشيف يشجعه على المضى فى القسوة ، والإمعان فى الظلم حتى مل الحياة ، وسئم تكاليفها ، وأصبح دائم الترحال لا يرتضى حالة من الحالات ، ولا يطيق البقاء فى مكان واحد ، وتكاثرت السحب والغيوم فى هذا العقل الذى استغله المغرضون من رجال الدين وعصابة المنافقين ، وتراكمت حوله غواشى الأحزان وأخذت تدب فى نفسه عقارب الندم وتبكيت الضمير لإغضائه عن قتلة أبيه ، ثم ماتت ابنته الوحيدة ، وكان لموتها فى نفسه ألم صادع وحزن فاجع ، ودبرت مؤامرة بعد ذلك لاغتياله والقضاء على أفراد أسرته ، فآلمت نفسه ، وفطرت قلبه ، وبدأ ينوء تحت أعباء الملك ، وفى سنة ١٨٢٥ ذهب إلى القرم ليستجم ويستطب من أدوائه ، ويستريح بعض الراحة من أعبائه ، وتروى المراجع الرسمية وأكثر المصادر التاريخية أن حمى خبيثة أصابته فى تاجنروج فقضى نحبه فى ١٩ نوفبر من العام نفسه ، واحتفل بدفنه احتفالا مهيباً ، ودفن جثمانه فى كاتدرائية حصن القديس بطرس

والقديس بولس ، ولكن عقب موته ذاعت إشاعة وملأت أرجاء روسيا وهى أن القيصر الإسكندر خصم نابليون اللدود ، وحامل رسالة السلام إلى أوربا لم يمت فى تاجنروج ، وإنما انقلب متصوفاً زاهداً فى مباهج الدنيا ، وأمجاد الحياة الأرضية الزائلة ، وأنه خلع رداء الملك ، وألقى من يده الصولجان ليفرغ للحياة الدينية ، وأن الجثة التى احتفل بدفنها احتفالا عسكريا رائعاً فخماً إنما كانت جثة جندى مجهول ، وأن القيصر الإسكندر اتخذ اسم الراهب كوزمتش الذى ظهر بعد سنوات عدة فى مدينة توبولسك فى سيبريا ، ثم ضعف أثر هذه الإشاعة ، ولكنها ظلت مع ذلك يتداولها المؤرخون الروسيون ، ففريق منهم يرفضها وينفيها فى احتقار واستخفاف ، وفريق آخر يشير إليها إشارات غامضة ملتبسة تلقى فى الروع أن الظروف السياسية كانت لا تسمح له بالتصريح برأيه ، وقد آمن بها بعض مفكرى روسيا وفى طليعتهم أديبها الكبير وفيلسوفها العظيم تولستوى ، وكادت هذه الحقيقة ، أو الإشاعة تلوذ بعالم الخرافات والأساطير . ولكن حدث ما بعثها من مرقدها وبث فيها حياة جديدة ، وذلك أنه فى سنة ١٩٢٧ نبشت الحكومة السوفيتية قبور القياصرة لتأخذ منها ما عسى أن يكون بها من نفيس الجواهر ، ورأى الحاضرون رفات بطرس الأكبر ، وبقايا كاترين الثانية فى ثيابها الفاخرة وحليها وجواهرها . ولكن لما فتح تابوت الإسكندر وجد خالياً فعادت الأسطورة القديمة إلى قوتها وتساءل الباحثون من جديد عن نصيبها من الحق والواقع .

وحوالى سنة ١٩٢٩ مات فى إيتونيا رجل فى التسعين من عمره اسمه فيكتور باسلفسكى ، وكان معروفاً بأنه من كبار التجار الموسرين وأوسعهم ثروة وأنه يملك الكثير من مناجم الذهب فى سيبريا ، وكان ملماً بها خير إلمام عارفاً بدقائق أحوالها ، وعند موته ترك مذكرات تلقى ضوءاً على هذا اللغز التاريخى ، وقد ذكر

بها أن أحد أتباعه فى سيبريا واسمه كروموف زاره مرة ، وهو فى حالة انفعال وتأثر شديدين ، وأفضى إليه بقصة غريبة ، وهى أن راهباً ناسكاً اسمه فيدور كوزمتش كان يعيش منذ سنين فى إحدى ضياعه ، وكان الفلاحون يحبونه لدماثة أخلاقه ، ولما أمعن فى الشيخوخة ، وأصابه مرض خطير ، وأحس بدنو أجله ، وقرب خاتمته ، استدعى كروموف ، وكاشفه بأنه هو الإسكندر الأول الذى ظن الناس أنه مات سنة ١٨٢٥ ، وأخبر كروموف أنه أمر بإذاعة خبر وفاته رغبة منه فى اعتزال الحكم والابتعاد عن الشؤون الدنيوية ، وأوصى أن يدفن فى التابوت المخصص له رفات جندى مجهول ، وقدم لكروموف من الأدلة والوثائق ما يثبت شخصيته ، وطلب إليه أن يحملها إلى ابن أخيه القيصر الإسكندر الثانى ، وتوسط باسلفسكى فى جعل القيصر يسمح بمقابلة كروموف ، واقتنع القيصر بما قاله ، ولكنه أوصاه بكتمان الأمر .

ولكن ما شأن التابوت الخالى ؟ وماذا كان من أمر جثة الجندى ؟ يروى باسلفسكى أنه فى سنة ١٨٨٢ أمر القيصر الإسكندر الثالث بنقل رفات الجندى من تابوت الإسكندر الأول ودفنه فى إحدى مقابر بطرسبرج ، وقد كتبت الدوقة أولجا الكسندر فنا شقيقة القيصر نقولا الثانى رسالة إلى باسلفسكى أفضت إليه فيها بأنها هى وأكثر أفراد أسرة رومانوف الأحياء يعتقدون أن الراهب فيدور كوزمتش والإسكندر الأول شخص واحد .

وقد ألف الأمير (١) باريانتسكى كتابا فى هذا الموضوع وأثبت فيه بأدلة مقبولة أن بقايا الجندى أزيلت بأمر القيصر الإسكندر الثانى فى ربيع سنة ١٨٦٦ أى بعد وفاة الراهب كوزمتش بعامين ، ويعلل باريانتسكى ذلك بأن الإسكندر اضطر

Le Mystere 4.Par Prince Vladimir Bariatinsky (Paris Payet) (١)

إلى أن يسلك هذا المسلك ، ويبالغ في التخفى تفادياً لإثارة القلاقل ، وأنه كان كثيراً ما يؤكد عزمه على التنازل عن العرش ، وكان يخشى الاعتداء على حياته ، وكانت روسيا فى عهده فاسدة الإدارة مختلة الأوضاع ، ولكن بعض الذين يشكون فى أن الراهب كوزمتش هو الإسكندر يقولون إن هناك أربعة أشخاص كانوا شديدى الاتصال بالإسكندر بحيث كانوا يعلمون الحقيقة لو أن وفاة الإسكندر كانت زائفة مصطنعة ، وهم الأمير ولكونسكى وطبيبه الخاص السير جيمس ويلى وناراسوف والقيصرة ، وكل منهم كان حاضراً عند وفاته ، وقام الأطباء بتشريح الجثة وأمضوا معاً التقرير القانونى ، وبارياتنسكى ينقض صحة ذلك التقرير ويقدم آراء ثلاثة من كبار الأطباء تثبت أن أعراض المرض المذكورة فى تقرير الوفاة لا تلتئم مع العلة التى يعزو إليها الأطباء سبب موت القيصر ، ويرى بارياتنسكى أن حاكماً أوتوقراطياً مثل الإسكندر لا يعجزه تدبير خطة اختفائه ، وتغطية الموقف .

ولكن القيصر الإسكندر كان رجلا جهير الرواء ، رائع الصورة ، بارز الشخصية ، وكان كثير التنقل فى أنحاء روسيا ومن ثم كان معروفاً بطلعته الغراء وسلوكه الآمر ، ومع ذلك فإن هذه الأسطورة أو الحقيقة تريدنا على أن نصدق أنه قد اختفت آثاره ، وانقطعت أخباره ، لمدة إحدى عشرة سنة ، برغم سريان الإشاعة القائلة باختفائه ، وذلك لأن أول ظهور الراهب كوزمتش متصوفاً دينياً كان سنة ١٨٣٦ .

وكان الراهب كوزمتش رجلا ممتازاً سامى الثقافة ، غزير العلم ، عارفاً بالدنيا ، قوى الشخصية ، جذاب الحديث ، فالشكوك الحائمة حول وفاة القيصر الإسكندر الأول شكوك قوية ليس من السهل تبديدها ، والتخلص من

وساوسها ، فهل فكر الإسكندر تفكير ملك الحيرة (١) النعمان بن امرئ القيس السائح صاحب الخورنق إذ أشرف منه فأعجبه المنظر ، وراعته مظاهر الثروة والمجد ، ففكر فى ذلك وناجى نفسه قائلا : «أى درك فى هذا الذى قد ملكته اليوم ويملكه غدا غيرى ؟» فبعث إلى حجابه ونحاهم عن بابه ، فلما جن الليل التحف كساءه وساح فى الأرض فلم يره أحد ؟ وهل استولت عليه حالة نفسية كالحالة التى استولت على جوتاما الهندى فهجر قصر أبيه وأولاده وزوجته وطلب الخلاص وأصبح بعد ذلك معروفاً عند الناس والتاريخ باسم بوذا ؟ هذه أسئلة لا يستطيع التاريخ فى الوقت الحاضر الإجابة عنها ، وقد تظل لغزاً خفياً يزيده مر الأيام تعقيداً وخفاءً ، وقد تنجلى فى المستقبل حقائق تعين على كشف سره ، ولكن سيظل العالم إلى ذلك اليوم يردد أن موت الإسكندر الأول قيصر الروسيا ، وخصم نابليون ، وعاهل أوربا ، وبطلها يوماً من الأيام تحوم حوله الظنون ، ويكتنفه الخفاء والغموض .

(١) صفحة ٢٠٤ من كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» لجرجى زيدان

فولتير وفردريك الأكبر

(كيف تصادقا ، ولماذا افترقا)

فولتير من الكتاب القلائل الذين اعتلوا ذروة المجد ، وبلغوا أقصى ما بلغه كاتب من الشهرة والتأثير ، وكان القلم بين أنامله أكثر سطوة من الصولجان فى يد الملك المتوج ، وأمضى حداً من السيف فى يمين الفاتح العظيم ، فهو يغير به الآراء ، ويوجه الأفكار ، ويهدم ما شاء من المذاهب ، وقد وطأ له هذا الملك الواسع فى عالم الفكر تعدد جوانبه ، وتنوع ملكاته ، ومشاركته فى فنون شتى وضروب مختلفة من المعرفة . فقد كان الشاعر المفلق الذى لا يشق له غبار ، وكان الناثر الذى خضعت لإمرته اللغة وانقاد له مستصعب البيان ، وكان الناقد الذى تتقى نظراته وتخشى بوادره ، وكان المؤرخ المجدد القليل المثال ، والفيلسوف اللامع الذى يرسل الضوء فى مشكلات الفلسفة فتبدو جلية واضحة المعالم . وقد أجاد الاقتصاد وحذق فنونه ، وغاص فى لجج المسائل المالية ، والمشروعات الاقتصادية ، حتى كثرت أرباحه ، وتضخمت أمواله ، ونال من الثروة الواسعة مالم تدر مثله حرفة الأدب الشحيحة على من أدركتهم وأوقعتهم فى شباكها ، وقد أعجب به عظماء عصره وكبراؤه وأعيانه ، واتصلت بينه وبينهم الأسباب ، فاستزاروه فى قصورهم ورحبوا به فى مجالسهم ، وراسلته القيصرة كاترين الروسية والبابا بندكت ، وكان من مراسليه المعجبين بأدبه المكبرين لعبقريته الأمير فردريك ولى عهد بروسيا الذى صار فيما بعد فردريك الأكبر.

كان هذا الأمير وهو يعانى الكرب والشدة ، ويذوق الغصص المتداركة ، قد وجد فى كتابات فولتير لذة الفكر ، ومتعة الروح . فنى سنة ١٧٣٦ أرسل إليه رسالة يزف إليه فيها إعجابه ، ويقدم له تقديره ، وكان منى نفسه أن يسطع فى سماء الشعر الفرنسى نجما ثاقباً ، وكان غمر البديهة موفور الذكاء ، يجيد النثر الفرنسى ، ولكنه كان مع ذلك يشعر بكثرة الأخطاء التى تتسلل إلى أسلوبه ، وتدب إلى شعره ، فتفسده وتشوه جماله . وكان من الطبيعى أن يشعر بالتقدير الكبير والإعجاب الفائق بالرجل الذى جلّى فى هذا الميدان ، وأوفى فيه على الغاية ، والذى أجمع نقاد عصره على أنه أكبر شعراء المأساة فى أوربا ، وأقدر الناثرين وأرسخهم قدماء ، وقد بدأ الأمير فردريك رسالته هكذا :

« سيدى :

ولو أنى لم أحظ بعد بمعرفتك معرفة شخصية ، فإنك معروف عندى بمؤلفاتك فهى كنوز العقل » وقد سر فولتير لهذه الرسالة ، فقد كان تطلعه إلى الجاه لا ينقضى وكان ظمؤه إلى الشهرة لا يرتوى ، وأجاب الأمير مطرياً شعره ، مثنياً على أدبه مبدياً الإعجاب بتفكيره ، وكان رده يكاد يقطر من البشاشة ويسيل من الرقة .

وتوالت الرسائل بينهما ، وكانت رسائل بين أستاذ وتلميذه ، وكانت ميول فردريك موزعة بين الفلسفة الألمانية والشعر الفرنسى ، وقد تناولت هذه الرسائل فيما تناولت مسألة « حرية الإرادة » وما إليها من المسائل الفلسفية والنظريات الأخلاقية ، ولم يقصر فولتير فى استرعاء نظر تلميذه الملكى الأريب إلى ماكان يقع فيه من أخطاء ، ونقده نقداً ليناً رفيقاً . وكانا فى هذه الرسائل يتقارضان الثناء ويتبادلان المجاملة . وكان فولتير يوازن فيها بين تلميذه وبين أبولو والسبيادیز ومرقس أورلياس ويقول بعودة مواهب فرجيل مقترنة بمواهب أغسطس ، أو

يقول «ليس سقراط عندى بشىء وإنما قد استأثر فردريك بحبى» . وكان فردريك فى ردوده يقول له «لا تحسبنى أدفع الشك إلى أقصى مداه فأنا أعتقد أن هناك إلهاً واحداً كما أن هناك فولتيراً واحداً» . ولم يكن إعجاب فردريك بفولتير خالياً من الإخلاص ، وكان فولتير من ناحيته يعتقد أنه فى ذات يوم قد يجلس على أحد عروش أوربا الإقليمية ملك متوج قد وهب حياته للفلسفة والفكر والأدب ، ولكن سرعان ما ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، واستيقظ الاثنان من الاسترسال فى الأحلام الجميلة والأمانى الحسان .

ففى سنة ١٧٤٠ أصبح الأمير فردريك ملك بروسيا ، واستبشر الفلاسفة والمفكرون والكتاب ، واستفاض سرورهم ، وأملوا خيراً كثيراً . فقد ارتقى واحد منهم العرش ، ولا ريب أنه سيسير سيرة الحكماء ويضع تعاليمهم موضع التنفيذ والاتباع .

وأراد فردريك أن يدعو فولتير إلى بلاطه . ولكن علاقته بعشيقته مدام دى شاتليه كانت عقبة فى سبيل ذلك ، فقد كانت هى لا تسمح له بالذهاب وحده ، ولم يكن فى الإمكان ذهابها معه إلى بوتزدام ، فقد كان المعروف عن الشاب أنه زاهد فى لقاء النساء ، معرض عن الاجتماع بهن فى المجالس ولو كن أديبات مفكرات من طراز مدام دى شاتليه .

ولكن برغم ذلك كان فردريك يتحرق شوقاً إلى رؤية فولتير ، واجتلاء محياه والائتناس بمحضره ، ومطارحته الحديث ، ومناقلته الأخبار ومبادلته الأفكار ، فرتب لقاء فى الأراضى البلجيكية ، وقد دهش فولتير لما رأى الملك يرتدى بذلة عسكرية ، وينام على سرير من أسرة الميدان ، وسرعان ما علمت أوربا جميعها بعد ذلك أن مؤلف كتاب «ضد مكيافلى» قبل التتويج سيكون أكثر ملوك أوربا مكيافيلية ، وأشدهم رغبة فى إثارة الحروب ، وسرعان ما عرف فولتير نفسه أن

فردريك شخصية أجل خطراً ، وأكثر تعقيداً ، وأبعث على الحذر مما قدر.

والتقى الصديقان بعد ذلك ثلاث مرات ، وكان يعقب كل لقاء فتور من ناحية فردريك ، فقدبدأ يتهم فولتير باطلاع الناس على رسائله الخاصة زاعماً أنه أوصاه بألا يطلع عليها أحداً ، وعاب على فولتير بخله وحرصه . ولكن انتقاصه لأخلاق فولتير لم يقلل مع ذلك من إعجابه به ، وتقديره العالى لمواهبه ، وذلك لأنه بعد تسلمه العرش اضطر إلى هجر البحوث الفلسفية ، ولكن حبه للشعر لم يفتر ، وكان يعتقد أن فولتير سيد شعراء عصره ، وطالما ناجته نفسه بإغراء فولتير بالإقامة فى برلين ليكون حلية البلاط ، وزينة الحاشية ، وليصبح طوع يده ، ورهن إشارته ، فينقح له شعره ، ويصقله ويسرّى عنه ببارع أحاديثه ولا مع نوادره ، ويمتعه ويسليه .

وفى خريف سنة ١٧٤٣ بداأن رغبته الأكيدة قاربت أن تتحقق ، فقد حضر فولتير إلى بلاط فردريك ، وأحسن الملك لقاءه ، وأكرم وفادته ، وبالغ فى التحفى به ، وقدمه إلى شقيقاته الأميرات ، وشنف أسماعه بالعزف على قيثارته الملكية . ولم تكن زيارة فولتير لفردريك فى هذه المرة زيارة بريئة ، فقد كان البلاط الفرنسى يريد أن يجس نبض فردريك ، ويعرف مدى ما يستطيع تقديمه لفرنسا إذا ما اشتبكت فى حرب مع النمسا من ناحية ومع إنجلترا من ناحية أخرى ، ورأى رجال البلاط أن يعهدوا إلى فولتير فى القيام بهذه المهمة . وظن فولتير أنه يستطيع أن يستغل صداقة فردريك ليصير سياسياً ورجل عمل ، ولكن فردريك كان بعيد الدهاء وشيطاناً من الشياطين فلم يغب عن عقله النفاذ قصد فولتير ، ولم يقع فى الشبكة . وقد أراد فولتير أن يبالغ فى التكتم وإخفاء الغرض السياسى لزيارته ، فادعى لفردريك أنه هجا الأسقف ميربوا ، وأن هذا الأسقف القوى النفوذ يطارده ، ويحاول التنكيل به ، وقد اضطره ذلك إلى

الابتعاد عن فرنسا ليأمن كيد الأسقف ويتقى شره . ولم يكن فردريك واقفاً على تفصيلات المؤامرة ولكنه أدرك أن زيارة فولتير لبلاطه إنما هى زيارة عين من عيون الحكومة الفرنسية ، ورأى أن الفرصة سانحة لنيل أمنيته .

وأراد فردريك من ناحيته أن يكيد لفولتير ، فجمع الرسائل التى أرسلها إليه فولتير وهاجم فيها الأب مير بوا وبعث بها إلى مير بوا ، وكان يرمى بهذه الخيانة إلى غرضين ، فإما أن الأسقف يثور ويغضب ويشكو فولتير إلى البلاط ، ويضطره إلى التخلى عن فولتير ، فيرغم على البقاء فى بروسيا ويظفر الملك حينذاك بمستشار عبقرى يصلح له كتابته ، ويثقف لغته ، ويصقل شعره ، وإما أن الأسقف لا يغضب ولا يشكو ويكون ذلك دليلا بيناً على خيانة فولتير ، وتواطئه مع الأسقف . وكان الرأى الأخير هو الأصوب والأرجح ، ولكن خطة فردريك فشلت ، فقد أفضى ميربوا إلى فولتير بما حدث ، فغضب فولتير غضباً شديداً ، فقد كان يعرف أنه سيقيم فى برلين بمحض إرادته ، ولكنه علم أن مضيفه يحاول بالخيانة والدسيسة أن يرغمه على البقاء ، وعاد فولتير إلى فرنسا ناقماً على فردريك ، ولكن فردريك كان راغباً فى مسالمته ومهادنته ، وكان لا يزال طامعاً فى الاستحواذ عليه ، واستخلاصه لنفسه ، وأخذ فى رسائله إلى فولتير يكثر من استرضائه وتملقه .

وفى سنة ١٧٤٩ تغير موقف فولتير ، فقد ماتت مدام دى شاتليه ، وتحرج مركزه فى فرساى ، ولم تنفعه صداقة مدام دى بومبادور . وانتهى ذلك إلى مسامع فردريك ، فدعاه إلى برلين ، ولبى فولتير الدعوة فى هذه المرة وحاول جعلها صفقة رابحة ، واضطر فردريك إلى أن يدفع له نفقات رحلته . ولما ورد برلين فى يوليو سنة ١٧٥٠ خصص له فردريك جناحاً فى قصر برلين، وجناحا آخر فى قصر بوتزدام ، وأنعم عليه بنيشان الجدارة ، وجعل له مرتباً سنويًّا قدره

ثمانمائة جنيه ، وفقد فردريك بعد ذلك البقية الباقية من احترامه لفولتير ، وصار يعتقد أنه نذل خسيس ، وكان ينكر عليه أخلاقه ويعجب بعبقريته ، ولكنه كان فى حاجة إلى من يهذب له شعره ، ومثل فولتير هو خير من يقوم بذلك وماذا يضيره من سوء أخلاقه ، وضعة نفسه ؟ وكان يعتقد فضلا عن ذلك أنه يستطيع أن يأمن شره ، ويلزمه حدود الأدب ، ويهز له السوط ، وذلك بأن يتكلف الفتور فى لقائه ، ويشير إلى إنقاص مرتبه ، وكان فردريك مخطئاً فى حسبانه ، ففولتير لم يكن قرداً يخوف بالسوط ، وإنما كان شيطاناً مريداً وربما كان ملكاً فمن الصعب أن نجْزم فى ذلك .

وكان المنظور أن تنتهى زيارة برلين بضجة مدوية ، وثورة عنيفة ، فقد كانت عناصر الموقف لا تحتمل سوى هذه الخاتمة ، وهكذا الحال إذا التقى رجلان شديدا الأثرة مثل فردريك وفولتير ، فقد تبعثهما المصلحة فى بادئ الأمر على التعاون ، ولكن سرعان ما تؤكد الطبيعة البشرية نفسها وتسير سيرتها المعهودة ، وكان يزيد هذا الخلاف احتداماً تفاوت الموقف ، فقد كان فولتير الخادم وفردريك السيد . ويروى أن فردريك قال لبعض خاصته لما سأله «إلى متى تحتمل نزوات فولتير» «بعد عصر البرتقالة يرمى الإنسان بالقشرة» وعلم فردريك كذلك أن فولتير قال بعد أن تلقى مقطوعات شعرية من نظم الملك ليهذبها : «أينتظر منى هذا الرجل أن أظل إلى الأبد أغسل ملابسه القذرة ؟» .

وهكذا بعد حضور فولتير بأسابيع معدودة بدأ يدب الخلاف بينهما ، وتتجمع السحب فى سماء صداقتهما ، وتوالت نوبات الغضب ، وكان فولتير يقول عنه لمدام دينس – وهى إحدى قريباته «إنه يفتح الرسائل الواردة لنا» . وكان فردريك يقول عنه «القرد الذى يطلع أصدقاءه على رسائلى الخاصة» .

وقد كان حب فولتير الشديد للمال هو سبب إثارة الخلاف ، فبعد ثلاثة أشهر

من إقامته ببرلين اشترك مع أحد اليهود فى مسألة مالية مريبة ، ثم تشاجرا واحتكما إلى القضاء ، وتراميا بالتهم المستفظعة ، وخسر اليهودى القضية ، ولكن علقت بسمعة فولتير أشياء كشف عنها تحقيق القضية . وأغضب ذلك فردريك حتى هم بعزله ، ولكنه لم يجد سبيلا إلى الاستغناء عنه ، فعاد إلى الصفح عنه ورعايته . وكان فولتير فى أثناء إقامته ببرلين محوطاً بعناية الأميرات والأشراف ومحفوفاً بإعجاب الناس من مختلف الطبقات .

ولكن فولتير لم يكن الفرنسى الوحيد المقيم عند فردريك ، فقد جمع فردريك حوله طائفة مختارة من الأشخاص أكثرهم من الأجانب ليتلقى عنهم ما ينقصه من المعرفة ويستعين بهم ، وقد اختار بعض هؤلاء الناس ليتملقه ويترضاه عندما تضيق أخلاقه ويتعكر مزاجه ، ويسليه عندما يعتريه الملل وينال منه الهم . وكان فردريك يقضى ساعات فراغه وراحته مع أفراد هذه الحاشية ، يبادلهم الأفكار والنكات .

وكان بين رجال هذه العصبة الشاذة رجل واحد جدير بالاحترام ، وهو « موبرتياس » الذى وضعه فردريك على رأس أكاديمية العلوم فى برلين منذ سنة ١٧٤٥ . وكان رجلا طموحا راغباً فى الشهرة ، وافر العلم ، جم النشاط ، أميناً مخلصاً ، وكان على جانب من الذكاء وحدة الخاطر ، وطالما تناول أضرابه ومنافسيه من العلماء بالتهكم المر والنكات اللاذعة ، فكان ذلك يزيد فردريك إعجابا به وتقديراً له ، وكان لا ينقطع عن حضور عشاء الملك ، وكان وجوده يقض مضجع فولتير ويضايقه ، وقد عرف كل منهما الآخر ، وأعجب به أيما إعجاب ، ولكن صاحبنا الشاعر المزهو الشديد الحساسية المتشكك فى إخلاص الملك ، الشديد الغيرة من المنافسين ، كان يعتقد أن له فى البلاط أعداء خفيين يدبرون له الدسائس ، ويوغرون صدر الملك عليه ، وأن موبرتياس منهم ،

وكانت رؤية موبرتياس فى خلال العشاء مشرقاً هادئ البال ناعماً فى ظلال عطف فردريك تثير حقد فولتير ، فأخذ يجهد فكره ، ويتعب رويته فى مراقبة الرجل ، وفحص أقواله وأعماله عله يقع على عيب ، أو يعثر على نقيصة . ولم يحسن موبرتياس التصرف فبدلا من أن يسترضى فولتير عمل على توسيع شقة الخلاف بينهما ، وكان من الطبيعى أن يثور غضبه ، ويفقد توازنه ، فقد كان قبل مجىء فولتير الكوكب اللامع فى المدار الملكى ، ولكنه بعد مجىء فولتير فقد مركزه الممتاز ، فمن ذا الذى يعير حديثه التفاتاً إذا تحدث فولتير ؟ .

ولاحت بعد ذلك الفرصة ليهاجمه فولتير وينال منه ، فقد كان هذا الرجل قد أذاع قانوناً رياضياً ادعى أنه اكتشفه ، وعارضه فى ذلك فريق من العلماء والباحثين ، وناقشوه واستندوا فى نقاشهم إلى رسالة من رسائل الفيلسوف الألمانى ليبنتز ، فبدلا من أن يجادلهم موبرتياس ويفند حججهم ادعى أن هذه الرسالة مزورة ، وأيده فى هذا الرأى الملك فردريك .

فاستغل فولتير الفرصة وأحكم تدبير أمره ، وجمع أمواله فى برلين ونقلها سرًّا إلى خارج بروسيا ، وفى ١٨ سبتمبر سنة ١٧٥٢ ظهرت فى الصحف مقالة قصيرة كان فيها تفنيد شديد لاذع لما ذهب إليه موبرتياس ، وعرف كاتبها لأن مثل هذا المقال لم يكن ليصدر عن غير فولتير ، ونالت هذه المقالة من موبرتياس وأغضبت الملك ، فلاذ فردريك بمكتبته وكتب رسالة غاضبة حشاها بالمبالغات فى الثناء على موبرتياس ، وملأها بالشتائم الموجهة إلى فولتير .

وعرف فولتير أن الملك قد دخل حومة المعركة فلم يثن ذلك عزمه ، وصمم على أن يحطم كل شىء قبل أن يبارح برلين ، وظل ذلك الخلاف خافياً عن الأنظار حتى ظهرت مجموعة رسائل لموبرتياس ، فانقض عليه فولتير انقضاض الباشق ، وكتب رسالته المشهورة «الدكتور أكاكيا» وفيها أحصى أخطاء

موبرتياس وأوهامه وسلّط عليه سخريته اللاذعة ، ونقده الهادم ، وجعل اا تل سخرية الأجيال وأضحوكة لا تنسى . ولم تكن رسالة فولتير مجرد سخرية وتجن ، وإنما كانت حافلة بالملاحظات الصائبة والنقدات الصادقة ، ولكن يشوب ذلك التهكم القاسى المر ، وأطلع فردريك على الأصل وضحك حتى دمعت عيناه وسالت عبراته على وجنتيه ، ولكنه أمر فولتير بالإمساك عن طبعها وإلا عرض نفسه للعقوبة . وتظاهر فولتير بالطاعة ، ولكن لم تلبث الرسالة أن ظهرت مطبوعة ، وذاع أمرها واستفاضت شهرتها ، فاشتد غضب الملك وأمر بجمع نسخها وإبادتها ، وعنف فولتير تعنيفاً شديداً ، ولم يمض على ذلك شهر حتى كانت ألمانيا مملوءة بنسخ من تلك الرسالة ، فقد طبعت آلاف النسخ فى هولندة وتسربت إلى ألمانيا .

ولا يسع الإنسان فى هذا الموقف إلا الإعجاب بهذا الرجل الذى تحدى إرادة رئيس حكومة قوية اعتماداً على ذكائه . وقال فردريك لفولتير بعد أن علم أن أوربا بأجمعها كانت تضج بالسخرية من الرجل الذى أظله برعايته واختاره رئيساً لأكاديمية برلين « إن قحتك تذهلنى » وأمر بحرق ما تيسر جمعه من رسالة « الدكتور أكاكيا » فى شوارع برلين ، فغضب لذلك فولتير وأعاد إلى الملك الوسام ومفتاحه الذهبى ومرتبه ، وعز على الملك فردريك فراق فولتير فحاول أن يستبقيه وكتب إليه معتذراً ، ولكن الشاعر لم يلن ، وعقد عزمه على الرحيل ، وفى ٢٦ مارس سنة ١٧٥٣ افترق الرجلان افتراقاً أبدياً .

من أجل كلمة !

(الخلاف بين مارى أنطوانيت ومدام دى بارى)

طالت المنافسة بين الأسرتين القديمتين ، أسرة الهابسبرج وأسرة البوربون ، على السيادة الأوربية ، وانتشبت بينهما الحروب ، واحتدمت الملاحم فى ميادين السياسة وساحات الوغى ، حتى أثخنتهما الجراحات ، ونال منهما الكلال والإعياء ، وفى اللحظة الأخيرة أدرك الخصمان العنيدان أن هذا الصراع العنيف لم يعد عليهما بطائل ، وأنه مكن الأسرات الناشئة من الظهور والاعتلاء . وخطر ببال ذوى الرأى من أمراء الأسرتين أن الاتفاق بينهما وإزالة أسباب الخلاف خير من التمادى فى الخصومة العقيمة وإذكاء النيران القديمة . ولمح السياسيون وميض هذه النزعات ، فأخذوا يعملون على تحقيق هذه الرغبة ، وكان فى طليعتهم السياسى النمساوى الخطير كونتز والسياسى الفرنسى القدير شوازيل . وكان الأول مستشار الملكة ماريا تريزا ، والثانى كان صاحب الكلمة المسموعة والرأى المتبع فى بلاط الملك لويس الخامس عشر .

ولكى يزداد الاتفاق بين الأسرتين قوة ودواماً اتفق الرأى على أن يتزوج ولى عهد فرنسا وحفيد الملك لويس الخامس عشر الأميرة النمساوية مارى أنطوانيت . وتمت مراسيم العقد وحفلات الزواج فى سنة ١٧٧٠ .

وعند مجئ الأميرة مارى أنطوانيت إلى بلاط فرساى كانت الملكة قد ماتت

منذ عامين ، وكان المنظور أن ينتقل نفوذها إلى بناتها الثلاث كريمات الملك لويس ، وهن مدام أدليد ومدام فيكتوار ومدام صوفى ، ولكنهن لم يكن راجحات العقل ساميات اللب ، بل كن على النقيض قصيرات الرأى مملات حاقدات ليس لهن أى تأثير على والدهن المتهالك على اللذات الحسية والشهوات الوضيعة ، ولم يرهب أحد مكانتهن . وكانت مدام دى بارى آخر حظيات الملك لويس فى أوج مجدها وقمة نفوذها ، وقد وقع الملك فى قبضتها ، وأصبح زمامه فى يدها تصرفه كيف تشاء . وكان الملوك والأمراء والأعيان يغدقون عليها الهبات ويتملقونها ، ويتوددون إليها لأنهم يعلمون أنها تستطيع عزل الوزراء ومنح المناصب الكبيرة التى تدر المرتبات الضخمة ، وأن فى استطاعتها أن تبذر أموال الدولة وتبتنى القصور حين تشاء .

وساء نجاحها الوزير شوازيل فأخذ يكيد لها ، ويغرى بها الصحف والمجلات ، واتسع نطاق حملة التشنيع والهجاء فلم يثر ذلك غضبها ، ولما قال لها كبير الشرطة « لقد قبضنا يا سيدتى على رجل نذل يتغنى بأبيات من الشعر بذيئة نظمت فى هجائك ، فماذا تريدين أن نصنع به ؟ » أجابته « دعه يغنى لك هذه الأبيات ، وتصدق عليه بعد ذلك بشىء يمسك رمقه » وأمعن الوزير شوازيل فى تحديها فأدالت نفوذه ، واقتلعته من منصبه ، وجعلته عبرة لغيره .

وقد استرعى وجودها فى بلاط فرساى نظر الأميرة مارى أنطوانيت من أول وهلة ، فسألت أحد رجال البلاط « ما وظيفة هذه السيدة ؟ »

فأجابها « وظيفتها إمتاع الملك » !

فقالت مارى أنطوانيت فى بساطة ملحوظة « أنى أستطيع أن أحل محلها »

ولكنها علمت فيما بعد عن هذه السيدة ما فيه الكفاية ، وكانت مجرد رؤية مدام دى بارى تحزن الأميرات بنات الملك وتثير نقمتهن . وكانت الفضيلة التى

أكرهتهن الظروف على التعلق بها تدفعهن إلى التبرم بهذه الحالة ، وكان عملهن من الصباح إلى المساء هو نحت أثلة مدام دى بارى ، وقد بذلن جهدهن فى أن يحشرن مارى أنطوانيت فى زمرتهن .

وكانت التقاليد المرعية فى البلاط الفرنسى تقضى بألا يبدأ الصغير الحديث مع الكبير إلا إذا بدأ الكبير الحديث . وكانت مارى أنطوانيت تعد أكبر سيدات البلاط مقاماً ، لأنها حرم ولى العهد . وكانت مدام دى بارى تنتظر أن تسمع من بين شفتى الأميرة مارى هذه الكلمة . وكانت مارى تضن بتلك الكلمة . ونمى ذلك إلى علم الملكة ماريا تريزا ، فأوصت وزيرها كونتز أن يرسل إلى وزير النمسا المفوض فى فرنسا – مرسى – بأن يذكر مارى بواجباتها السياسية ، وأن ينصحها بإظهار الرعاية لمن لهم مكانة عند الملك ، سواء كانوا جديرين بها أولا ، ولكن مارى ظلت ملتزمة سياسة الصمت .

وكانت مدام دى بارى تود أن تعترف بها مارى أنطوانيت وتشعر بوجودها . وكبر عليها أن تتجاهلها هذه الفتاة الغريرة التى لا تكاد تجيد الحديث باللغة الفرنسية ، وأن تستهين بها ، وتجعلها أضحوكة لرجال القصر ومضغة فى أفواه الحاشية .

ولكن مارى ركبت رأسها ، ومضت فى سننها ، ولم تكن مدام دى بارى امرأة نكداء خبيثة شرسة ، أو مطبوعة على الدس والإيقاع ، وإنما كانت امرأة طروباً لا يضمر قلبها السوء ، ولا يعرف الحقد ، وكانت مأنوسة المحضر ، محبوبة القرب ، غاية فى الملاحة والصباحة . وقد اتفق مرة أن زارت الوزير شوازيل لأمر من الأمور ، فلمحها الملك لويس ، وكان لا ينى يترقب فريسته ، ويطلب صيداً ، فاسترعى نظره جمالها الباهر وحركاتها الرشيقة ، وسعى وسطاء المسرات بينهما ، وكان الطريق معبداً ، فقبلت فى سرور وارتياح أن تشغل المكان الذى

خلا بوفاة مدام دى بومبادور منذ سنوات ، وتطلعت إلى الفرائد والحلى ، وكانت بهما مشغوفة ، وأحبها الملك وفتن بها من أول لقاء لأنها لم تتكلف شيئاً ، ولم ترتد ثياب البراءة والقداسة لتتملقه ، وتترضى كبرياءه ، وإنما جرت على طبيعتها ، وكشفت له عن حقيقة نفسها .

وكانت مدام دى بارى تحب الاعتراف بقوتها ، والاستمتاع بمكانتها السامية ، وأن تلبس أفخر الثياب وأغلى الجواهر ، وأن تكون لها العربات الفخمة ، التى تجرها الجياد المطهمة ، ولم يضن عليها أسير هواها بشىء من ذلك ، فقد كانت عنده مستجابة الدعوات ، ملباة المطالب .

وتحلق رجال القصر وسيدات البلاط حول ميدان هذه المعركة المسلية القائمة بين المعتصمة بالصمت الشامخة المتعالية ، والأخرى التى يكاد يستطيرها الغضب وتنفجر الدموع من عينيها ، فأيتهما تكسب المعركة ، وتنتصر فى النهاية ، ولية عهد فرنسا وملكتها المقبلة ، أو حظية الملك وفاتنة لبه ؟

لم تشهد فرساى مثل هذه المعركة منذ سنين . ولما اشتدت الحالة ، وتعقدت الأزمة ، اهتم الملك اهتماماً جديًّا بالموضوع ، وكان قد تعود أن يطاع بمجرد الإشارة ، ولكنه لقى معارضة لأول مرة من فتاة ناشئة بلهاء .

وكانت الخطة الواضحة القريبة أن يدعو إليه هذه الفتاة الشموس الحرون ، وأن يفاتحها فى الأمر ، ولكن حتى هذا الساخر اللاهى السادر فى لذاته كان فيه بقية من التردد ومراجعة النفس ، فلم يجترئ على أن يأمر زوجة حفيدة أن تتواضع وتخاطب عشيقته ، فحول المسألة إلى الناحية السياسية ، واستدعى السفير النمساوى – مرسى – عن طريق وزارة الخارجية ، وحضرت الاجتماع مدام دى بارى ، وأوضحت للسفير أن مارى أنطوانيت قد أساءت معاملتها ، وأنها لا تنطوى لها إلا على الإخلاص والتقدير . وحار السفير فى الأمر ، وتكلم كلاماً

غامضاً ، وتحدث الملك فى صراحة عن مارى أنطوانيت ، فقال إنها صغيرة السن ، متوثبة الروح ، وأنها تزوجت من رجل لم يستطع أن يسيطر عليها ، وأنها أصبحت ألعوبة فى يد عصبة من مستشارى السوء ، وأشار عليه أن يبذل جهده ، ويستعين بنفوذه لحمل مارى على تعديل سلوكها . وقدر « مرسى » خطورة الموقف ، وأرسل إلى بلاط فينا رسالة مسهبة أوضح فيها بلمسات لطيفة من ريشته أن مدام دى بارى لا تريد إلا ترضية يسيرة ، وهى أن تخاطبها ولية العهد بكلمة أمام الناس . وقبل أن يتلقى الرد زار مارى أنطوانيت وخاطبها فى الأمر ، ومزج حديثه بشىء من التهديد ، وأشار إشارة خفية غامضة إلى السم الذى كان يستعمل فى البلاط الفرنسى للخلاص من كل شخص فى مكانة عالية غير مرغوب فى بقائه ، وصارحها بأن مثل هذه المسألة قد تحدث صدعاً فى العلاقات بين الهابسبرج والبوربون ، وتفسد ذلك الاتفاق الذى رمت إليه والدتها وجعلته هدف حياتها وأساس سياستها .

وأخاف هذا الحديث مارى أنطوانيت ، وأثار شجونها ، فوعدته بأنها ستقول تلك الكلمة فى وقت قريب ، فخرج فرحاً مسروراً معتقداً أنه قد وفق فى معالجة المشكل وإزالة أسباب الخلاف .

وذاع فى القصر أن مارى أنطوانيت ستنطق بالكلمة المنظورة فى ختام إحدى الحفلات المسائية . واتفق على أن يبدأ السفير الحديث مع مدام دى بارى ، ثم تجىء ولية العهد وتتحدث إليه ، ثم تنتقل من الحديث معه إلى مخاطبة مدام دى بارى بالكلمة الموعودة . ورتب الأمر ترتيباً دقيقاً ، ولكنه لم ينفذ ، وخاب المسعى . وذلك لأن الأميرات كريمات الملك تدخلن وأبين أن تنتصر مدام دى بارى عدوتهن انتصاراً علنيًّا ، فلما أقبلت مارى على البهو وأخذت تنثر التحيات ، وتوزع الابتسامات ، وكانت تطيل الحديث عمداً مع بعض

الحاضرين ، وكادت تتم الدورة ، ولم يبق بينها وبين « مرسى » ومدام دى بارى إلا سيدة واحدة ، وإذا بمدام أدليد تسرع إليها فى اللحظة الحاسمة — وكانت أشد بنات الملك حقداً على مدام دى بارى — وقالت لها بلهجة الآمرة : « لقد حان ميعاد الانصراف ، وسنذهب إلى مخدع شقيقى فكتوار لننتظر قدوم الملك » وكانت مفاجأة لمارى أطارت صوابها ، وأفقدتها شجاعتها ، ولم تسعفها البديهة بشىء تخاطب به مدام دى باری ، فعادت أدراجها مرتبكة غير عالمة بما تفعل ، ولم تنطق بالكلمة الموعودة ، وفسد التدبير وساء الموقف ، وتحرجت الأزمة ، وطرب النافخون فى الشر ودعاة الفتنة ، وغضب لويس الخامس عشر لغضب حظيته ، وقال للكونت مرسى بمرارة : « يظهر أنك لم تصنع شيئاً ، ولا بد أن أسعفك وأعينك » . واشتد غضب مدام دى بارى ، وتداعت أركان الاتفاق بين النمسا وفرنسا ، واستهدف سلام أوربا للخطر ، وأخطر السفير البلاط النمساوى بخطورة الأمر ، وفداحة الخطب ، ولم يبق إلا أن تتدخل ماريا تريزا بنفوذها ، لأنها هى الوحيدة التى كانت تستطيع كبح جماح هذه الثائرة ، واضطربت الملكة وساورها القلق ، وقد حرصت فى بادئ الأمر على أن تبعد ابنتها عن المسائل السياسية ، وتجنبها مزالقها ، لأنها كانت تعلم سوء أحوال فرنسا الداخلية ، ولا تود أن تحمل ابنتها أوزارها ، وفضلا عن ذلك كان يشغل بالها أمر هام ، وهو تقرب فردريك الأكبر ملك بروسيا وكاترين الثانية الروسية من البلاط النمساوى ، وكانت هى تكره فردريك وتخشى شره ، ولا تثق بالملكة كاترين ، وكانا يرميان من وراء التقرب من النمسا إلى استدراجها إلى الاشتراك فى تقسيم بولندة ، وقد استطاعا أن يجتذبا إلى رأيهما السياسى كونتز والملك جوزيف ابنها ، ولم يكن ضميرها مطمئناً إلى هذا التقسيم المشئوم لاعتقادها أنه عمل ظالم ، وأنه جريمة منكرة ، وساءها أن يرضى ذلك ابنها الطموح ، وأن يؤيده ويشد أزره

صنيعتها كونتز الذى رفعته من الحضيض ، وأنالته المجد والسلطة . وكانت تشعر بخيبة أمل شديدة ، وتود أن تعتزل الملك ، لولا شعورها بالتبعة الملقاة على عاتقها ، وخوفها على مصير الإمبراطورية . وكانت قد اضطرت إلى إقرار الاتفاق اضطراراً لإلحاح ابنها وشدة ضغط وزرائها ، وكانت تتساءل هل يرضى هذا الاتفاق فرنسا ؟ وهل يرتاح له لويس الخامس عشر بعد عقد الاتفاق بين البوربون والهابسبرج وتوثيق العلاقات بينهما ؟

ووافاها كتاب «مرسى» وهى تعانى هذه الحالات ، وتفكر هذا التفكير وعلمت من الكتاب أن الملك لويس جد مستاء ، وأنه أظهر استياءه للسفير النمساوى . والآن بسبب امتناع مارى أنطوانيت عن التحدث إلى مدام دى بارى قد يثير تقسيم بولندة أزمة سياسية ويجر إلى الحرب ، وإذا كانت الأم قد ضحت بضميرها من أجل السياسة فهل تظل ابنتها ملكية أكثر من الملك ، ومحافظة على التقاليد أكثر من أمها ، وتمتنع عن مخاطبة حظية الملك ؟

بادرت الملكة ماريا تريزا إلى إرسال كتاب إلى مارى أنطوانيت أشد لهجة ولم تشر فيه بطبيعة الحال إلى مسألة تقسيم بولندة أو غير ذلك من شؤون الدولة ، وإنما ذكرتها بأن من واجباتها إرضاء الملك ، والخضوع لمشيئته ، وليس فى الأمر ما يمس الشرف ، ويزرى بالكرامة ، ولا تطلب المسألة أكثر من كلمة عابرة ، وابتسامة بسيطة لتسوية الموقف وتصفية الجو .

فخضعت مارى أنطوانيت ولان عصيها ، فقد كانت على عصيانها وتمردها لا تجسر على مخالفة أمها ، فصممت على التسليم ، وقبول الأمر الواقع .

وفى اليوم الأول من سنة ١٧٧٢ ظهر أثر ذلك التصميم على التسليم وإلقاء السلاح ، وانجلاء الموقعة عن انتصار مدام دى بارى ، وأعد المسرح لشهود الحادثة ، واجتمع النظارة من رجال البلاط ونسائه ، ومرت سيدات البلاط

على ولية العهد ، ومن بينهن مدام دى بارى ، وحبس الجميع أنفاسهن ليسمعن الكلمة الموعودة ، فلما جاء دور مدام دى بارى حولت الأميرة وجهها إلى ناحيتها وقالت لها «فرساى اليوم حافلة بالناس» ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك ، وكان لهذه الكلمة التافهة وقع فى الدوائر السياسية ، والبلاطات الأوربية ، فقد خاطبت ولية العهد حظية الملك ، فحقنت الدماء ، وتحسنت العلاقات المتوترة بين فرنسا والنمسا ، وزالت العاصفة ، وصفا الجو ، وعانق الملك ولية العهد ، وشكرها الكونت مرسى متأثراً متهدج الصوت ، وتخطرت مدام دى بارى فى أبهاء فرساى تخطر الطاووس ، واشتد حقد الأميرات كريمات الملك ، وهاج البلاط وماج ، وهزمت مارى أنطوانيت ، وانتصرت مدام دى بارى .

وفى الحق أن هذه الكلمة التافهة التى أرسلتها مارى أنطوانيت كانت بعيدة الأثر ، كانت هذه الملاحظة العابرة هى الخاتم الذى طبعت به جريمة سياسية من جرائم التاريخ الكبرى ، وكانت الثمن الذى تقاضاه الملك لويس الخامس عشر ليقبل تقسيم بولندة . ولأول مرة قبلت مارى أنطوانيت الهضيمة ، واعترفت بالهزيمة ، وخفضت رأسها الأشم الذى لم ينحن بعد ذلك إلا أمام المقصلة .

قالت الأميرة مارى بعد ذلك لمرسى «لقد ألقيت إليها هذه المرة بهذه الكلمة ، ولكنها لن تسمع صوتى مرة أخرى ، وصارحت والدتها بذلك ، وعبثاً حاول مرسى والملكة ماريا حملها على تغيير هذا السلوك ، ولم يجد معها الإرهاب ولا الترغيب .

ولم تكن مدام دى بارى حاقدة على مارى أنطوانيت ، وإنما كانت مجروحة الإباء ، وقد التمست هذه الترضية البسيطة لتضمد جراحها ، وخجلت بعد ذلك من انتصارها ، وكانت تعلم جيد العلم أن قوتها قائمة على قواعد غير مكينة ، فقد كان سيدها الملك متقدماً فى السن ، وقد تودى بحياته نوبة من نوبات الصرع ،

وتصبح ماري أنطوانيت ملكة فرنسا ، وتستطيع إرسالها إلى سجن الباستيل ، وكانت تتحرى بعد ذلك أن تظهر فى اجتماعات القصر المسائية ، وكانت مارى تتعمد إهمالها ، وهى تحتمل ذلك صابرة ولا تظهر ضجراً ولا حقداً ، وكانت ترسل لمارى التحيات التى تعبر عن ولائها وإخلاصها . وحاولت اجتذاب رضاها بإطرائها عند الملك ، ولما لم يصلح ذلك كله فكرت فى أن تقدم لها هدية ثمينة ، وكانت تعرف ولوعها باقتناء كريم الجواهر ، وثمين الحلى ، وكاشفت إحدى الوصيفات بذلك وكلفتها إبلاغ الأمر لمارى أنطوانيت ، فلم تتنازل مارى إلى الرد عليها ، فقد صممت على الترفع عن مخاطبة المرأة التى أذلتها علانية ولو قدمت لها جواهر الأرض جميعها . وما حاجتها إلى كريم الجواهر ونفيس الحلى وهى ستلبس عما قريب تاج فرنسا الذهبى ؟ وتعزت مدام دى بارى عن ذلك بقولها « ولية العهد تأبى مخاطبتى ، ولكن لا بأس لقد ملكت كل شىء غير ذلك » .

وقد جمع بينهما القدر بعد ذلك فى وحدة المصير المحزن ، فكلتاهما ماتت تحت المقصلة ، وذهبت ضحية الثورة الحاطمة .

بطل بولندى

من أبطال الحرية والاستقلال

(صفحات من حياة الزعيم كوستسيوشكو)

الأمة البولندية من الأمم التى امتحنتها الأيام ، وصهرتها الخطوب . ومصير هذه الأمة الصبور المجاهدة منذ ذلك الحادث الفظيع المعروف فى تاريخ أوربا الحديث باسم تقسيم بولندة الأول طالما أثار العطف عليها ، والمرثية لما أصابها . وقد ثبتت بولندة لنوازل الخطوب ، ولم تستطع القضاء على حيويتها الحروب المبيدة والثورات الدامية ، وقد احتملت عسف الروسيين وعنجهيتهم وسوء نيتهم ، وغشم البروسيين وغلظتهم وجشعهم ، وتخلت عنها أوربا فى أشد أيام محنتها ، ولم تتقدم أية أمة من الأمم للأخذ بيدها فى أكثر مراحل جهادها الشاق الطويل فى سبيل الاستقلال والحرية .

وعلقت بولندة أملها فى الخلاص على الجبار الكورسيكى نابليون ، وأخلصت له الولاء ، وشدت أزره فلم يف لها ، وضحى بها فى سبيل مطامعه ، وقد ثار البولنديون بظالميهم ثورات عدة كانت تخمد بقسوة رهيبة وبعد مجهود عنيف ، منها ثورة سنة ١٨٣٠ وثورة سنة ١٨٦٣ ، ولست أنكر أن للبولنديين – كما لسائر الأمم – عيوبهم الخاصة التى جرت عليهم الأهوال واستوجبت صارم العقاب ، ولكن ما حل بهم من فوادح الملمات لا يعادل أخطاءهم ، ولا يوازن

نقائصهم ، فقد لقى هذا الشعب الباسل من حماقات الروس وفظاعات الألمان الشيء الكثير ، وكل أمة لها ماض مأثور فى الجهاد لنيل الحرية لابد أن تزدان صفحات تاريخها بسير الكثيرين من أبطال الوطنية وقادة الحركات الثورية ، وتاريخ بولندة من هذه الناحية مفعم بجلائل الأعمال ونبيل المواقف وحوادث البطولة ، وفيه نلتقى بطائفة من أصحاب النفوس الكبيرة الأبية المطبوعة على البذل والفداء والاستشهاد .

مطامع الروس فى بولندة :

وقد أخذ الضعف يدب فى بولندة منذ عهد ملكها الشجاع جون سوبيسكى الذى أجلى الأتراك عن أسوار فينا ، ورد غائلتهم عن النمسا فى سنة ١٦٨٣ ، وكان سوبيسكى جنديًّا بارعاً وبطلاً مقداماً ، ولكنه لم يكن ملكاً عظيماً ولا سياسيًّا قصى النظر ، فلم يستطع استئصال عوامل الضعف والفساد وبواعث الفوضى وتشعب الآراء ، وجلس على عرش بولندة بعده ملكان من أصل ألمانى كانا لا يعبآن بشؤون الدولة ولا ينهضان بأعبائها مما ضاعف العلة ، وزاد فى الارتباك ، فأخذت الجيوش الأجنبية تكتسح بولندة وتغزوها وتتدخل فى نظام حكومتها وتوجيه سياستها ، وتعيث فى أرضها فساداً . وكان نبلاؤها فى شقاق دائم ، وكانت فى حاجة إلى يد حازمة تتركز فيها القوة وتكبح جماح عوادى الأهواء ، وكان جيران بولندة الثلاثة وهم الروسيا والنمسا وبروسيا يعملون على تعكير جوها وإقلاق راحتها ، ويأتمرون بها ، ويبيتون لها الشر ، وأخذ المفكرون من أبنائها المخلصين يلمحون الهلاك المحقق المقبل ، ويرون نذر الشر والسوء .

وفى سنة ١٧٦٤ تسنم عرش بولندة بمساعدة القيصرة كاترين الثانية نبيل بولندى اسمه «إستانسلاوس بونياتوسكى» . وكان هذا الرجل أحد عشاقها

الكثيرين . وكانت القيصرة كاترين ملكة بعيدة المطامع ، شديدة الدهاء ، واسعة الحيلة ، وقد سولت لها مطامعها الاستيلاء على بولندة برمتها ، فأخذت تتحين الفرص لبلوغ غرضها . وقد أعانت إستانسلاوس على اعتلاء العرش لأنها كانت تعرف لين عريكته وسهولة انقياده . وكان إستانسلاوس ولوعاً بالفن ، مقبلا على الأدب ، دمث الأخلاق ، ملمًّابآداب المجتمع ، فشيد قصراً على الطراز الفرنسى فى وارسو تحف به الحدائق الغلب ، وأقام به مسرحاً فى الهواء الطلق تترقرق إلى جانبه بحيرة ، وأنشأ مدرسة حربية لأبناء الأشراف عنى بها وأشرف عليها بنفسه ، وكان من الذين تربوا بها وتخرجوا منها البطل البولندى كوستسيوشكو ، ولكن ملك بولندة فى تلك الفترة الدقيقة من حياتها وهى فى مهاب المطامع ومعترك الشهوات كان فى حاجة إلى صفات أخلاقية أسمى من الشمائل الرقيقة ، والذوق المهذب المصقول . كان فى حاجة إلى الإيمان القوى ، والإرادة الماضية ، والعزم الصلب . وكان إستانسلاوس فى يد امرأة من طراز كاترين مثل الشمعة طواعية وليناً .

واستغلت كاترين الفرصة ، وأرسلت مندوباً من قبلها اسمه ريبنين (Repnin) وكان رجلا مزهوًّا قاسياً تسنده روسيا . وكان البولنديون يعجزون عن مقاومته حتى أصبح الحاكم الحقيقى لبولندة . وقد حاول هذا الرجل إرغام مجلس النواب البولندى على إقرار وثيقة تمتهن حرية الشعب وتنزل به إلى مرتبة الرق والعبودية ، واعتقل النواب الذين امتنعوا عن إقرارها وأرسلهم إلى روسيا ، فلم يسع النواب الباقين إلا الإذعان .

وقد نجم عن ذلك حركة ثورية انضوى تحت لوائها ألوف من البولنديين ولم يكن للقائمين بهذه الحركة يدان بمقاومة الجيوش الروسية الجرارة فتوالت هزائمهم وعمدوا إلى حرب العصابات وعجز الروسيون عن سحقهم وحدهم ، فاشتركت

معهم الجيوش البروسية والجيوش النمساوية وبذلك أخمدت الحركة .

وتبع ذلك تقسيم بولندة بين الروسيا والنمسا وبروسيا ، وأرادت كاترين أن تظهر ذلك التقسيم الجائر فى الثوب الشرعى ، فأمرت صنيعتها الملك إستانسلاوس أن يجمع مجلس النواب البولندى ويأمر الأعضاء بإقرار ذلك التقسيم وهددته بالعزل إذا تلكأ أو أقام العقبات فى سبيل إنجاز هذه الخطة ، فلم يجترئ على مخالفتها ، وشمر لإجابة طلبها ، فقد كان الرجل حريصاً على عرشه مستميتاً فى الاحتفاظ به .

ظهور البطل كوستسيوشكو :

وانحدرت بولندة إلى درك البؤس والشقاء وسوء الحال . كان شبانها اليافعون قتلى فى ميادين الجهاد ، وكانت بلادها قد انتهبت وخربت ، ولم يكن لها جيش يصون كرامتها ويرد عنها الغوائل وقد أنشب فيها الروسيون والبروسيون والنمساويون أظفارهم . وكان لكل منهم جيش نظامى ضخم . ولكن كل ذلك لم يلن من عزم البولنديين ، واتخذت مقاومتهم أسلوباً سلبيًّا . وقد تم ذلك التقسيم المنحوس سنة ١٧٧٥ . وقد انتقص هذا التقسيم من أطراف بولندة ولكنه لم يفت فى عضدها . وحاول البولنديون إصلاح شأنهم فى الجزء الباقى لهم من بلادهم ، وجروا فى ذلك شوطاً بعيداً فنهضوا بالأدب والفن ، وأنشأوا المصانع ، وأصلحوا نظم التعليم ، وجعلوا الملوكية نظاماً وراثيًّا ، وأبطلوا طريقة الانتخاب لأنها كانت تمهد السبيل للفوضى والدسائس الأجنبية ، وتحسنت حالة المزارعين وارتقى مستوى معيشتهم وفى سنة ١٧٩١ أصبح النظام الجديد نظاماً متبعاً وسنة مرعية . ولم ترق الروسيين هذه الحركة الإصلاحية الشاملة ، ففى سنة ١٧٩٢ غزت بولندة جموع روسيا ، وتبع ذلك مقاومة باهرة ودفاع مجيد من جانب البولنديين ، وكان

يقود الجيش رجلان بولنديان ، أحدهما أمير صغير هو الأمير جوزيف بونياتوسكى ابن أخى الملك إستانسلاوس والآخر كوستسيوشكو ابن أحد المزارعين وأعظم رجل عرفته بولندة فى أواخر القرن الثامن عشر ، ومن أشهر أبطالها الخالدين ورجالها البارزين .

وقد ولد تاديز كوستسيوشكى فى ناحية هادئة من نواحى لتوانيا ، وسجل له التاريخ أنه البطل الذى وقف حياته على إنقاذ بلاده ، ومدافعة أعدائها ، ونصرة قضيتها ، وقل أن تفتح كتاباً فى تاريخ بولندة دون أن يطالعك محياه المستوحش الغريب الذى يذكرنا بقول أبى تمام :

غربته العلى على كثرة الأهل فأضحى فى الأقربين جنيباً

وقد نشأ فى جو من البساطة والتقوى ، وعاش عيشة الريف الصحية الوديعة فى منزل من الخشب ذى طابق واحد سقفه من القش والبوص وأروقته ممتدة مستطيلة . ومات أبوه وهو طفل فجاهدت أمه جهاداً متصلا لترد عن المنزل عوادى الخراب وتنشئه نشأة صالحة . وكان يبدو أن تاديز سيعيش ويموت خامل الذكر ، خفى الشأن فى ظلال ريف ليتوانيا . ولكن القدر كان يدخر له شيئاً آخر . فقد رآه أحد النبلاء وكان يعرف والده فلمح فيه مخايل النجابة ، ولوائح الهمة والإقدام ، فأرسله إلى المدرسة الحربية التى أنشأها الملك إستانسلاوس وكان يشرف عليها بنفسه . وكانوا يربون الطلبة فى هذه المدرسة تربية قومية تجعل فيها خدمة بلادهم صوب نظرهم . وكان طلبة هذه المدرسة يوضعون تحت الاختبار مدة سنة قبل أن يسمح لهم بحمل السيف ، فإذا أثبتوا أنهم جديرون بتقلده أقيم لهم احتفال يقسمون فيه بشرفهم على ألا يشهروا السيف إلا فى سبيل الدفاع عن بلادهم . وقد زادت هذه النشأة النيران المتأججة فى نفس تاديز ، وقد طالما وصفه أنداده فى الدراسة بأنه أشدهم عناداً ، وأكثرهم صبراً على العمل وبذل

الجهد ، وأن له نظرة آمرة وشخصية ساحرة .

وبعد تخرجه من المدرسة الحربية رحل إلى فرنسا ، وانقطع خمس سنوات لدراسة الهندسة ، وعاد إلى بلاده ، وكان ذلك عقب التقسيم الأول ، فوجد باب العمل لإنقاذ بلاده مرتجًّا وكانت أمريكا فى ذلك الوقت تجاهد الإنجليز ، فأبحر هذا البولندى إلى العالم الجديد ليحارب فى سبيل الحرية .

وظل فى الميدان ست سنوات ، وساهم فى إقامة الحصون على نهر الهدسن وصحب القائد جرين الذى كان يحارب فى الجنوب فى نواحى كارولينا ، واشترك فى إنشاء الزوارق التى كان يعبر عليها الجنود فوق ثوائر الأمواج ، وأنشأ فى وست بويندت لنفسه حديقة صغيرة كان يمضى فيها سويعات فراغه مفكراً فى بولندة ومصيرها ولا تزال آثار تلك الحديقة موجودة ومسماة باسم «حديقة كوستسيوشكو» .

ولما وضعت الحرب الأمريكية أوزارها ، وتحققت آمال الأمريكيين عرفوا له فضله وحسن بلائه ، فسربلوه الشرف ، وخصوه بالرعاية والتقدير ، ولكن لم يكن هناك ما يستدعى بعده عن بلاده ، فعاد إليها وعاش فى ضيعته الصغيرة ، وأنشأ حديقة صغيرة كانت موضع عنايته وغرس فيها الأشجار بيده ، وكان يخالط المزارعين ويواسيهم ويجبر بكرمه وصفاء نفسه قلوبهم الكسيرة ، ويزور جيرانه ، ويخص صغارهم بسابغ عنايته ، وفائض بشاشته .

كوستسيوشكو يقود أمته :

وتدفقت الحوادث فى مجراها تدفقاً سريعاً ، ولم تمكن كوستسيوشكو من أن يظل ناعماً فى هدوء الريف . ففى سنة ١٧٩٢ هاجمت الجيوش الروسية بولندة فاستصرخته أمته ليقود الجيش مع الأمير جوزيف بونياتوسكى ، وبعد انقضاء

شهرين على هذه الحرب التى أظهر فيها البولنديون الكثير من ضروب الشجاعة ، وتجلت فيها بطولة كوستسيوشكو أفسد الملك على الأمة البولندية أمرها باستسلامه للروسيين ، والتقى كوستسيوشكو هذا الجندى الصلب المتين البناء الشديد الأسر بالملك إستانسلاوس الرقيق الحاشية ، السرى الهيئة ، فدافع عن بلاده دفاعاً مجيداً وحاول عبثاً أن يرد الملك إلى صوابه ، ويبصره عواقب الإمعان فى الاستسلام ، ولكنه كان يضرب فى حديد بارد ، وحاول الملك أن يغريه ويجتذبه إلى صفه ، ولم يكن أمامه إذا أراد أن يسلم شرفه ويصون سمعته إلا أن يعرض عن الملك ويتنازل عن رتبته وثروته وأن يوطن النفس على احتمال آلام النفى والفقر والحرمان ، فأغمد سيفه واجتاز حدود بلاده المحبوبة ودعا الله أن يمكنه من العودة إلى حمل السيف دفاعاً عن وطنه . وسرعان ما حانت الفرصة ، فقد اتفق بعد انسحاب كوستسيوشكو مع طائفة من أحرار البولنديين أن روسيا وبروسيا قامتا بتقسيم بولندة بينهما مرة ثانية . فأثار ذلك ثائرة الشعب البولندى ، وجعل البولنديين يصممون على الاحتفاظ بالجزء الباقى لهم ، ويعملون على استرداد الأجزاء التى اغتصبها أعداؤهم بحد السيف . وعقدت اجتماعات فى جنح الليل ، وعلقت منشورات فى الشوارع تدعو الناس إلى الثورة ، ولم تستطع الشرطة معرفة كاتبيها ، واتجهت بولندة جميعها إلى رجل واحد تطمئن إليه وتثق به وهو كوستسيوشكو ، فدعوه ليتولى القيادة ، فقبل الدعوة وعاد إلى كراكاو .

الموت أو النصر :

واجتمع تحت لوائه الكثيرون من الرجال والنساء ، وقدموا أنفس ما يملكون من خيل ومال وجواهر كريمة ، وكان العمال والمزارعون وأصحاب المهن يجودون عن طيبة خاطر بما ادخروه من مال قليل ، وقد استطاع هذا الجيش الذى كان

قوامه المزارعين أن يبدى براعة فائقة وأن يقوم بحركات حربية بديعة ، وكان كوستسيوشكو يهيب بهم فى حومة الوغى فيلبون دعوته ويستجيبون لندائه ويحصدون الروسيين حصداً ، وكان شعار الجميع «الموت أو النصر» .

ولم يكن إقبال الناس على التطوع فى هذا الجيش بدافع الوطنية وحدها ، وإنما كان لشخصية كوستسيوشكو الجذابة المحبوبة أثر كبير فى ذلك ، وكان يواصل عمله ليلا ونهاراً ويضن على نفسه بالراحة القليلة ويظل ينظم الحركات ويضع الخطط ويكتب الكلمات المثيرة يستنهض بها العزائم ويستثير الحمية ، ويرسل الرسائل إلى مختلف الدول ليسترعى نظرها ويكتسب عطفها ، وسرعان ما اشتبك جيشه الصغير القليل المعدات فى معارك طاحنة مع الجيش الروسى الجرار والجيش البروسى المنظم الكامل الأهبة ، وكثرت الخسائر وتوالت الهزائم ولكن كوستسيوشكو كان رجلا ركيناً لا يزدهيه النصر ولا تطير بلبه الهزيمة . وكان فى خلال تلك الحركة هو حاكم بولندة المطلق فلم يغير هذا المركز الرفيع من أخلاقه ، وظل على بساطته المعهودة وتواضعه المحبوب ، وكان يعيش فى إحدى خيم المعسكر ويأكل الخبز الأسود مثل سائر جنوده ويحتسى الجعة ، وقد سأله أمير بولندى يملك مالا وضياعاً «لم لا تشرب النبيذ المعتق»؟ فأجابه كوستسيوشكو «إنك تستطيع ذلك لأنك غنى بعيد النفوذ ولكننى خادم بولندة المضطهدة ولا يجمل بى أن أنفق نقودها على مطالبى الخاصة» وكان رجاله يعتبرونه أخاً لهم ، وكان يلبس ملابسهم ويؤمهم فى الصلاة ، واستمر جيشه يجاهد من شهر مارس إلى شهر يوليو ويلقى الانتصارات والهزائم .

وكان سكان وارسو قد ثاروا بالروسيين حينما انتهت إلى أسماعهم أنباء الثورة التى تزعمها كوستسيوشكو وطردوا الجيش الروسى من مدينتهم ، ولكن فى أوائل يوليو كان الجيش الروسى والجيش البروسى يتقدمان نحو وارسو ، فأسرع

كوستسيوشكو لإنقاذها ، وبدأت حينذاك أعظم مخاطرة قام بها كوستسيوشكو ، وقد أثار حضوره الحماسة فى نفوس المدافعين عن وارسو ، وكان الجميع يحتذون مثاله ويسيرون سيرته ويتلقون وحى تفكيره ، وبعد مضى ثمانية أسابيع طويلة حافلة نظر البولنديون من أسوار المدينة فرأوا العدو ينسحب ويقوض خيامه ، ورفع الحصار ، وأنقذت المدينة .

وعم السرور والابتهاج ، ولكن لم يطل أمد ذلك فقد كانت القيصرة كاترين الثانية تستعد لتقسيم بولندة الثالث ، وأرسلت إلى وارسو جيشاً ضخماً يقوده سواروف أعظم قوادها ، وعاد الجيش البروسى إلى محاصرة المدينة ، وخشى النمساويون أن يضيع نصيبهم من الغنيمة فبادروا إلى إرسال جيش ليشترك فى الحصار واقتحام المدينة ، وصمم كوستسيوشكو على أن يخرج إلى أحد المعسكرات خارج المدينة ليهزم أحد الجيوش الروسية قبل قدوم سواروف ، وتحرك الجيش البولندى لمنازلة الروسيين ودارت أرحاء معركة شديدة بدأت من الصباح واستمرت طوال النهار ، وحارب البولنديون حرباً شديدة بشجاعتهم المعهودة بل فاقوا أنفسهم وأتوا بالخوارق فى ذلك اليوم المأثور ، ولكن عدد الروسيين كان يفوقهم إلى حد كبير ، وكانت نيران المدافع الروسية تتساقط عليهم كالأمطار ، ونفدت ذخيرتهم ونال منهم الكلال . فاخترق الروسيون صفوفهم وطوقوا الجيش البولندى . وكثرت جراح كوستسيوشكو حتى سقط فى الميدان فاقد الوعى وأسره ثلاثة من الضباط الروسيين . وعاد الجيش الروسى إلى بطرسبرج ومعه كوستسيوشكو وغيره من الأسرى البولنديين . وظل كوستسيوشكو فى السجن عامين . وفى سنة ١٧٩٦ ماتت القيصرة كاترين . وبعد موتها بأيام كان كوستسيوشكو مستلقياً فى سريره لأنه كان لا يقوى على الوقوف ولا على المشى فأدهشه أن يرى نفراً من الناس يدخلون حجرته . وكان بينهم القيصر

بولس الأول الذى كانت تنتابه من الحين إلى الحين المشاعر النبيلة وابنه الإسكندر الذى ارتقى عرش روسيا بعده وخادمه . وعانق الإسكندر كوستسيوشكو وقال له القيصر بولس : «لقد جئت لأطلق سراحك» وكانت مفاجأة شديدة الوقع ، فلم يدر كوستسيوشكو كيف يجيب ، ثم جلس القيصر وتحدث إلى كوستسيوشكو حديثاً طويلا . ولم يكن هناك ما ينسى كوستسيوشكو أمر بولندة فدافع عنها دفاعاً حارًّا فى حضرة عاهل الروس .

وبعد إطلاق سراحه زار السويد وإنجلترا وأمريكا وفرنسا وكان أينما حل يقابل بالترحاب ويلقى الرعاية من أعظم الرجال وأجمل النساء وتقدم له الهدايا ، ولم يكن الرجل يعنى بشىء من هذا فقد كانت حالة بلاده لا تبرح مخيلته ، وقضى أيامه الأخيرة فى سويسرة . وكان جميع الفقراء فى الأقاليم المحاورة لمكان إقامته أصدقاء له فقد كان يحمل إليهم الصدقات من دخله القليل . وكان يعيش فى عزلة تامة ، وبعد موته حملت بقاياه إلى مدينة كراكاو وأقام له مواطنوه نصباً تذكاريًّا فى ظاهر المدينة ولا تزال ذكراه ناضرة فى نفوس مواطنيه إلى اليوم وستبقى كذلك ما بقى اسم بولندة .

بين مكسيم جوركى ولينين

من علامات العصر الحاضر وخصائص تفكيره اتجاه الكتاب الخالقين وممثلى الثقافة الحديثة إلى معالجة الشؤون الاجتماعية ، والخوض فى المشكلات العملية ، والانحياز إلى أحد معسكرات المذاهب السياسية المتطاحنة . وفى الماضى القريب كانت مسألة تقسيم الكتاب والمفكرين تبعاً لرأيهم فى نظام الحكم والمبدأ السياسى الذى يؤثرونه ويناضلون عنه تكاد تكون وهماً من الأهام ومذهباً خاطئاً من مذاهب النقد والتحليل ، والأمة الوحيدة التى كانت تخرج على هذه القاعدة وتشذ عن تلك السنة هى الأمة الروسية . فقد كان المألوف عند الروسيين أن يعبر الشعراء والكتاب والنقاد عن ميولهم السياسية ونزعاتهم الحزبية ، ومنذ أوائل القرن التاسع عشر لم يستطع أكثر كتاب روسيا الفرار من مواجهة مشكلاتها الاجتماعية وأزماتها السياسية . وقد كان إسكندر بوشكين كبير شعراء الروس ضالعاً فى ثورة ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، وأعدم الشاعر رايلييف لأنه كان من جناتها وقد آزر الثائرين رجال الأدب وزهرة المفكرين . وكتاب «مذكرات صياد» الذى وضعه الكاتب الروائى العظيم إيفان ترجنيف كان يعد من الحوادث الاجتماعية الهامة التى أثارت الضمائر وهزت النفوس ، وكانت عاملا من عوامل تحرير الفلاحين ورفع نير العبودية عن كواهلهم . وآراء تولستوى فى التقليل جهد الطاقة من سلطة الحكومة ونبذه سلطان الكنيسة ودفاعه عن الطبقات المظلومة جعله قوة هائلة فى روسيا ، مؤيدة للتعاليم الثورية . وقد مرت بالأدب الروسى

فترات متقطعة كان يؤثر فيها القيم الفنية والأدب الخالص ، ويضعها فوق سائر القيم ، ولكنه فى اتجاهه العام وحركاته الشاملة كان يقترب على الدوام من النقد الاجتماعى والنزعات السياسية . وكان يروق الشعراء والروائيين والقاصين أن يلتمسوا الموضوعات التى تنطوى على تحد للسلطة ومناوأة لتقاليد المجتمع ونقد للأحوال العامة .

وليس فى مستطاعنا أن نقدر مدى تعمق هذه الاتجاهات الأدبية عند الروسين إذا أغفلنا الإشارة إلى حقائق حياتهم وحوادث تاريخهم ، ولروسيا ظروفها الخاصة وملابساتها الاجتماعية ، ونظمها السياسية والدينية التى تسوغ هذا الاتجاه ، وتبين ضرورته ، وخضوعه لمنطق الحوادث . فقد كان نظام روسيا الاجتماعى فى القرن التاسع عشر فريداً عجباً بين النظم الأوربية لأنه كان قائماً على بقاء العبودية ، ولما ألغيت العبودية وعطلت أحكامها ظل هذا النظام الاجتماعى مرتكزاً على الاحتفاظ بالحكم الأوتقراطى المطلق ، ومن ثم كانت الحياة الأدبية والنزعات الفكرية ثورة على هذا الجمود ومقاومة لهذا الطغيان الذى كاد يمحو الحياة ويشل القوى . وكان لزاماً على الكتاب والمفكرين والمصلحين أن يتعاونوا على مكافحة الخرافات والجهل والاضطهاد والقسوة ، وأن يعملوا على تأكيد القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية فى مثل ذلك الجو الخانق والسجن المطبق الذى شيدته يد الاستبداد . وقد كان بعض القياصرة يبدأ بداية حسنة مبشرة ، ويعد المستنيرين بالإصلاح والحرية ، ولكن سرعان ما كان يخلف الظن ويخيب الأمل . وقد تتلمذت القيصرة كاترين الثانية لفولتير والإنسيكلوبيديين . ولكن هذه التلميذة النجيبة المجدة كانت تخمد الثورات بقسوة وعنف ولم تكن فى إهمال حقوق الشعب وإهدار كرامته أحسن حالاً من غيرها ، وكذلك كان حفيدها الإسكندر الأول ، فقد تتلمذ للإرهاب ، وتحمس فى أوائل حكمه للإصلاح ،

وأفضى به الأمر فى النهاية إلى ترك زمام الأمور فى يد الرجعى الرهيب أركشايف . وقد ظلت الرقابة على الصحف والمجلات والمعاهد والجامعات وبرامج التعليم قائمة فى روسيا طوال القرن التاسع عشر . وكان نظام الجاسوسية من الدقة والإتقان بحيث لا تخفى عليه خافية ولا تفوته حركة .

وكانت النتيجة المحتومة لهذا الضغط البالغ والحجر الشديد أن يضطلع الكتاب الخالقون والشعراء الفنانون بنقد الأحوال الحاضرة ، وتناول الشؤون الاجتماعية ، وتصوير النزعات الراهنة ، وحقائق الحياة الواقعة . ومن أشهر كتاب روسيا فى هذا المجال وأسبقهم فى هذا الميدان الكاتب الكبير مكسيم جوركى الذى ولد سنة ١٨٦٨ وتوفى سنة ١٩٣٦ . وقد كان فى سنواته الأخيرة فى طليعة الشخصيات البارزة المحترمة فى روسيا الشيوعية ، بل كان يعد فى نظر قومه بطلا من أبطال الجهاد يحفه الإجلال والتعظيم . وقد غير البلاشفة اسم مدينة نجنى نوفجورد التى ولد فيها جوركى ، وكانت مسرح ذكرياته وقصصه ، وسموها « مدينة جوركى » . وكانت المصانع ودور التعليم وأندية العمال تتبارى جميعها فى حمل اسمه والعناية بأدبه . وكانت فكرة نشوء فن جديد وثقافة مجتمع لا تتفاوت فيه الطبقات ولا تتباين الأقدار تستمد منه الوحى وتلتمس عنده العون والتأييد . وكان الكتاب الناشئون يفخرون بأنهم مدينون لتشجيعه ، وأنهم يحيكون على منواله ويذهبون فى الأدب مذهبه .

وقد ناصر جوركى الثورة الروسية منذ بدايتها ، وكان من حملة أعلامها والمدافعين عنها ، وكانت له علاقات بأقطابها البارزين ، ولا سيما زعيمها الأكبر لينين . وقد عاونهم بقلمه وأيدهم برأيه ، وناضل عن الاشتراكية الشيوعية ، وتصدى لخصومها يسفه آراءهم ويفند حججهم . وكان نقد الثقافة البورجوازية وإبراز عيوبها من الموضوعات القريبة من نفسه ، الحبيبة إلى قلبه .

ولم يكن الرجل داعية من الدعاة كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما كان صاحب عقيدة ، ورب فكرة ، وكان يعتقد اعتقاداً عميقاً مخلصاً أن الشيوعية هي طريق الخلاص ، وباب النجاة ، وأن لا سبيل إلى استنقاذ روسيا من الخرافات والأوهام ، وبعثها من الجمود والفتور المستولى عليها إلا بالشيوعية .

وقد نبغ جوركى من صميم الشعب الروسى ، ونشأ نشأة عجيبة قليلة الأمثال ، فقد كان أبوه إسكافا ، ومات وهو لم يبلغ الرابعة من عمره ، وكفله جده وأرسله إلى المدرسة مدة أشهر قلائل ، ولم يمكنه فقره من إبقائه فى المدرسة ، واضطر جوركى إلى العمل فى سن مبكرة ، فاشتغل فى حانوت صانع أحذية ، وفى الثانية عشرة من عمره فر من منزل جده وأخذ يضرب فى الأرضين ويتقلب فى شتى البلاد ، واشتغل مرة بإحدى البواخر يغسل الأوانى والصحاف ، وكان طاهى الباخرة رجلاً ضخماً عمّلاقاً له مشاركة فى الأدب وميل إلى القراءة والاطلاع ، وكان يقول لجوركى إن القراءة هى ألذ المتع وأبقى المسرات ، وقد أثرت كلمات هذا الطاهى الأديب فى نفس جوركى الغضة المتطلعة ، ثم عاد إلى جده ، ولكن سرعان ما اعتراه الملل ، ونبا به المقام ، فعاد يكدح فى طلب الرزق ، ويطوف فى البلاد ، وجاب إقليم الفلجا ، ووصل إلى ضفاف بحر الخزر ، وكان يعمل بهمة وعزيمة ، ولكنه كان يبيت أكثر لياليه خاوى الوفاض قد طواه الجوع وتلغّبه السير .

وقد حاول وهو فى قازان – وكان فى الخامسة عشرة من عمره – أن يلتحق بإحدى المدارس ، ولكنه وجد عملا فى محل خبار ، ولم يلبث أن تركه واشتغل بستانيًّا ، ثم منشداً فى إحدى الكنائس ، وراقه بعد ذلك أن يعمل مع صائدى الأسماك فى أستراخان ، واشتغل مرة حارساً ليليًّا بالسكة الحديدية .

وقد كان جوركى رجلا كبير النفس واسع الأمل ، فلم يسخط الحظ ، ولم

يشك البؤس ، ولم يَنِ عن إدمان التحصيل واستيعاب التجارب ، واختزان المؤثرات ، وقد مكنه ذلك من أن يلمس قلب الشعب ، ويفهم حاجات الطبقات الفقيرة ، ولف هواه بهواهم ، وعقد المودة الدائمة بينه وبينهم ، وقد كانت معايشته لهذه الأصناف المختلفة من الناس ، ودراسته لهذه الأنماط العديدة من الأخلاق من دواعي استثارة عبقريته ، ومن العوامل التي خلقت منه كاتباً فريد الطابع فذ الشخصية .

وشرع يكتب بعض القصص القصيرة فصادفت إقبالا ورحبت به المجلات الأدبية ، وفى سنة ١٨٩٨ ظهرت له مجموعة من القصص فى مجلدين لقيت رواجاً . وفى مدى عام أو عامين أصبح ذلك الصعلوك الشارد الجوال الذى تقاذفته البلاد ، ولفظته مختلف المهن فى طليعة كتاب روسيا ، وترامت شهرته وعظم تأثيره حتى قرن اسمه باسم أديب روسيا العظيم تولستوى والروائى الكبير تشيكوف .

وقد وصل جوركى إلى أوج شهرته عند تمثيل روايته « فى الأعماق » سنة ١٩٠٢ بمسرح موسكو. وقد انضم إلى معسكر الماركسيين واشترك فى تحرير مجلتهم ، وقد عطلت المجلة لأنها نشرت له قصيدة تنبأ فيها بالثورة القادمة ، وقبض عليه ونفى إلى نجنى ، وألغى انتخابه لأكاديمية العلوم ، فاستقال منها تشيكوف وكورلنكو احتجاجاً على ذلك ، وعمل جوركى مع الثائرين الناقمين وحضر مؤتمراتهم .

وفى أيام اشتداد الثورة الروسية استطاع جوركى بجاهه ومكانته عند زعماء الثورة أن ينقذ الكثيرين من الكتاب والمستنيرين من مخالب الموت وبراثن الفقر ، وحاول جهده أن يلطف من ميول الثورة الحاطمة ويخفض من غلوائها . وقد نفعته فى ذلك السبيل صداقته المتينة لزعيم الثورة وكبير رجالها « لينين » . وليس

غريباً أن تنشأ بين هذين الرجلين النادرين تلك الصداقة المتينة والتقدير المتبادل ، فقد كان لينين مفكراً ممتازاً وعالماً واسع الاطلاع قبل أن يكون زعيماً سياسيًّا ، وثائراً هادماً ، وكان يعرف جوركى وإخلاصه وحسن بلائه . وكان جوركى يسمع عن لينين قبل أن يراه ويعجب بشخصيته ، وقد رآه أول مرة فى لندن عند حضوره مؤتمر حزب العمال الروسى الديمقراطى الاشتراكى الذى عقد سنة ١٩٠٧ ، ولما التقيا صافحه لينين وحياه تحية حارة وفرح به فرحة الأديب بالأديب ، وقال له فى عرض الحديث : «أعتقد أنك من هواة النضال ، وستدور فى المؤتمر معارك تروقك» وقد حضر هذا المؤتمر كثيرون من الزعماء والقادة ، بينهم بليكانوف وتومسكى ومارتوف وروزالوكسمبرج . وقد وصف لنا جوركى لينين عندما جاءَ دوره فى الخطابة فقال : «أسرع فلادمير إلى منصة الخطابة وصاح بصوته المنبعث من الحلق «أيها الرفاق» ، ويدالى فى بادئ الأمر أنه لا يحسن الخطابة ولا يجيد الإلقاء ، ولكن ما هى إلا لحظة حتى استغرقنى حديثه ، وغمرنى تياره ، ولأول مرة فى حياتى أسمع مشكلات السياسة الصعبة المعقدة تعرض بأسلوب يسهل حزنها ، ويجلو دياجيرها ، ولم أشعر بأنه يبذل فى ذلك جهداً أو يعانى مشقة ، وأنه يحاول أن يتخير الألفاظ المنمقة والتراكيب البليغة الطنانة ، وكانت كل كلمة من كلماته واضحة المخرج ، جلية المعنى ، ناصعة الدلالة ، ومن الصعب أن أنقل إلى القارئ ما تركه فى نفسى من أثر . . . وخيل إلى أنه يزن كل لفظة ، ويقدر وقعها ، وأنه يتقصى نقدات خصومه ويتتبعها ، ويردها كلمى جريحة بحجج دامغة تؤيد حق العمال فى أن يسلكوا طريقهم دون أن يسيروا خلف البورجوازية الحرة ويتعلقوا بذيلها . . . وكانت وحدة حديثه واتساقه وقوته واتجاهه المباشر ووفاؤه بالغرض ومظهره على المنصة تكوّن فى مجموعها قطعة بديعة من الفن الكلاسيكى . وقد كانت خطبته أقل

طولاً من خطب غيره من الخطباء الذين سبقوه ، ولكن تأثيره فى النفوس كان أعظم وأبقى ، ولم يكن هذا شعورى وحدى ، فقد سمعت صوتاً يهمس خلفى «لقد قال شيئاً» وكان لا يصل إلى النتائج التى ينتهى إليها بكلفة وتعمل ، وإنما كانت كأنها تنمو من تلقاءِ نفسها ، وتبدو كأنها شيء لا مناص منه ولا سبيل إلى غيره» .

ويصف لنا جوركى عطف لينين الجم على العمال وفرط عنايته بشؤونهم وبالغ اهتمامه بتفقد أحوالهم ، وينقل جوركى عن أحد العمال أنه قال فى الموازنة بين لينين وبليكانوف زعيم المنشفيك : «بليكانوف يشعرك على الدوام بأنه يلقى عليك درساً ، ويشرف عليك من حالق ، ولكن لينين يشعرك بأنه الزعيم الحق والرفيق» .

وقد لاحظ جوركى أن لينين كان يتخفف من الطعام ، وكان قليل العناية بنفسه ، موجهاً اهتمامه جميعه إلى العمال ، وقد سأل مرة جوركى أحد هؤلاء العمال : «ما هى أبرز صفات لينين ؟» فأجابه العامل : «البساطة ، إنه بسيط مثل الحق نفسه» .

وقبل الحرب الكبرى السابقة بأعوام قال لينين لجوركى فى أحد أحاديثه : «الحرب قادمة وليس لنا عنها معدى ولا مذهب ، وقد وصل عالم الرأسمالية إلى درجة الاختمار العفن ، ولقد تسممت عقول الناس بعقاقير الوطنية والمغالاة فى النعرة القومية ، وأكبر ظنى أننا سنرى حرباً أوربية عامة ، وسوف لا تجد الطبقات الفقيرة القدرة على اجتناب هذه المجزرة ، وكيف السبيل إلى ذلك ؟ هل يستطيع عمال أوربا الإضراب ؟ إنهم لم ينظموا بعد التنظيم الكافى ، وينقصهم الوعى الطبقى (أو الشعور بأنفسهم باعتبارهم طبقة متحدة) وليس فى وسعنا ساسة عمليين أن نعتمد على ذلك . . .» .

ثم التفت لينين إلى جوركى واسترسل قائلاً «فكر فى هذا مليًّا ، واعجب لقوم متخومين يدفعون بقوم جياع مهازيل إلى محاربة بعضهم البعض ، أرأيت جريمة أدل على الغباء والحماقة ، وأشد نكراً وفظاعة ؟ وسيدفع العمال ثمناً غالياً ، ولكنهم سيفوزون فى النهاية . وهذه هى إرادة التاريخ» .

وكان لينين رجلاً صبوراً مجرباً ، يعرف كيف يتلقى الضربات ويثبت للنوازل . قال مرة لجوركى : «من الخير أن نلقى الفشل بالفكاهة والابتسام ، والفكاهة صفة باهرة ، والحياة مضحكة بمقدار ما هى محزنة» .

ولينين بلا ريب من أعظم شخصيات العصر الحديث ، وقد أحبه قوم حتى العبادة ، وكرهه قوم حتى ودوا أنهم يستطيعون رجمه بالأحجار ، وقد أثر فى تاريخ العالم تأثيراً بعيد المدى ، وكانت عقليته عقلية غير عادية ، وقد كوّن آراءه السياسية فى صدر حياته ، ولما تبلورت تلك الآراء لم يتحول عنها ، وكان يغير الأسلوب ولكن الهدف الذى كان يرمى إليه ظل واحداً ، وكان عقله فى صميمه عقل متعصب يعتقد أنه قد عرف الحق واهتدى إلى سبيله ، وكان كتاب «رأس المال» الذى وضعه كارل ماركس إنجيله ومصحفه ، وكان مع ثقته بنفسه واعتداده بآرائه لا يشمخ ولا يتكبر ، قال جوركى فى ذكرياته عنه : «لا أستطيع أن أتصور رجلاً غيره قد بز الناس وسبقهم وأناف عليهم ، وبقى بعد ذلك مطرحاً لأهوائه بريئاً من الطموح ، لا يعنى بغير مصلحة الشعب ، ولا يفكر فى غير نفعه والنهوض به . ولقد كان فى شخصيته سحر يجذب نحوه قلوب العمال ويسيطر على عواطفهم ، وكانت له ضحكة خلابة صادرة من أعماق القلب ، ضحكة رجل قد عرف سخافة البشر السمجة البغيضة ، وذبذبة الأذكياء وتقلبهم وبهلوانيتهم ، وأصبح يجد متعة وروحاً فى بساطة السليمى القلب الخالصى الطوية» .

ويقول جوركى فى تبرير الشدة التى لجأ إليها لينين لحماية النظام الذى وضع أساسه : «إن واجب قادة الشعب المخلصين لما يخرج عن طوق البشر فى الصعوبة ، والزعيم الذى لا يكون طاغية إلى حد ما من المحال وجوده . وقد قتل كثيرون فى عهد لينين ، ولكن لولا هذا القمع لأصبحت المقاومة التى لقيها النظام الجديد أوسع نطاقاً وأقوى عزماً وأشد خطراً ، وعلاوة على ذلك فإن علينا أن نقيم وزناً لهذه الحقيقة ، وهى أن تقدم الحضارة قد قلل من قيمة الحياة الإنسانية ، ومما يثبت هذه الحقيقة فى الحياة الأوربية المعاصرة تقدم فن إبادة الناس واستساغة هذا العمل» .

وفى موضع آخر من ذكرياته عن لينين يقول : «لقد طالما أفاض القائلون وأسهب الكاتبون فى رمى لينين بالقسوة والفظاعة ، وليس من أربى أن أقف ذلك الموقف المضحك الخالى من التبصر ، وهو أن أحاول تفنيد الأقاويل الكاذبة ، أو أن أرد على الشتائم والنمائم ، فإنى أعلم أن الكذب والتنقص وتشويه السمعة من الأساليب المتبعة فى السياسات البورجوازية الحقيرة ، ومن المتعذر أن نجد رجلا عظيماً فى العصر الحاضر لم يقذف بالأوحال ، وهذا من الأمور المعروفة المألوفة ، وفضلاً عن ذلك فإن هناك ميلاً فى نفوس الناس إلى إنزال العظماء من مستواهم الرفيع وغمط حقوقهم . . . ولقد كان فلادمير لينين يعرف أكثر من أى إنسان كيف يمنع الناس من البقاء على أسلوب الحياة الذى تعودوه وألفوه ، وكراهة عالم البورجوازية له كراهة عارية مكشوفة» .

وحادثه جوركى مرة عن قسوة الأساليب الثورية فقال له لينين غاضباً : «ماذا تريد بذلك ؟ هل من الميسور أن نتصرف تصرفاً إنسانيًّا رحيماً فى معركة منقطعة النظير فى هولها وضراوتها ؟ وأين يكون مكان رقة القلب وكرم الأخلاق فى مثل هذه المعركة ؟ لقد حاصرتنا أوربا من جميع النواحى ، وحرمنا من معاونة

العاطفين علينا فى أوربا ، وكانت الحركة المناوئة للثورة تطالعنا من شتى الجهات ، فماذا تريد ؟ ألسنا على حق ؟ ألم يكن من واجبنا أن نجاهد ونقاوم ؟ وما هو المعيار الذى نرجع إليه فى تقدير الضربات اللازمة والضربات غير اللازمة فى الحرب والصراع ؟ » .

ويحدثنا جوركى فى ذكرياته عن مضاء عزيمة لينين وقوة إرادته وقسوته على نفسه ، ففى أيام المجاعة كان يعف عن تناول الطعام الذى يرسله إليه الجنود والمزارعون . وكان يوزع ما يرسل إليه من الدقيق والسكر والزبد على المرضى والضعفاء من الرفقاء .

ولما لاحظ اعتلال صحة جوركى نصح له بالسفر إلى خارج روسيا ، وألح عليه فى ذلك ، ولم تنسه الواجبات الضخمة الملقاة على عاتقه السؤال عن صديقه القديم وزميله فى الجهاد ، والعناية بأخباره .

وقد ختم جوركى ذكرياته القيمة النفيسة عن لينين بهذه الكلمات التى اختتم بها هذا الفصل : « لقد مات فلادمير لينين . ولكن ورثة فكره وإرادته لا يزالون أحياء . وهم يتمون عمله ، ويكملون ما بدأه ، وعمله أكثر الأعمال انتصاراً فى تاريخ البشرية » .

هذا ما قاله جوركى . ولكن هذا العمل يجتاز الآن محنة قاسية ويمر بتجربة شديدة . أتراه يتغلب عليها ويسمو فوقها ؟ هذا ما ستتكفل بالإجابة عنه الأشهر أو الأعوام القلائل القادمة .

تصادم عبقريتين

(الصراع بين أبي جعفر المنصور وأبي مسلم الخراسانى)

يقف مدونو التاريخ الإسلامى وقفات طويلة حيال الخلاف المشهور الذى ثار بين أبى مسلم الخراسانى وأبى جعفر المنصور ، وأسفر عن قتل أبى مسلم ، ويكثرون من تفصيل حوادثه ، واستقصاء أسبابه ، وسرد مختلف الروايات التى تدور حوله ، وتتصل به . وعذرهم فى ذلك واضح مقبول . فقد كان الرجلان من الشخصيات النابهة المنيفة التى ارتبطت بتاريخها حوادث عصرها أشد ارتباط . وأبو جعفر هو رجل العباسيين الذى ثبت لهم الخلافة وأرسى قواعد الملك ، وكان واحد عصره فى قوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، ونفاذ النظر ، وإحكام التدبير . وأبو مسلم نادرة من نوادر التاريخ ، ونتاج غريب لاحتكاك الإسلام بالحضارة الفارسية ، وقد انحدر – فى بعض الروايات – من صلب بزرجمهر بن البختكان وزير كسرى أنو شروان ، وإذا صح ذلك فهو من أصل فارسى شريف تلتهب فيه الروح الفارسية تحت غلالة الإسلام ، وتلمح فى تصرفاته سطوة الأرستقراطية وقسوتها ودهاءها وشمائل الملك وعزة السلطان . وقد استطاع بصادق حماسته ، وبارع قيادته ، وفائق تدبيراته ، أن يغير مجرى التاريخ الإسلامى ويضرب ملك بنى مروان الضربة القاضية ، ويرفع على أنقاضه بيت بنى العباس . وقد تمكن من إنجاز ذلك كله قبل أن تبلغ سنه الخامسة والثلاثين .

وقد كان فى بنى العباس طموح ودهاء وحرص على طيبات الدنيا ونزوع إلى السلطة وخبرة جيدة بالدوافع الإنسانية . وقد أحسنوا تدبير الدعوة واختيار الأرض العذراء الصالحة لاستنبات بذورها ، وعرفوا الفرصة المناسبة لظهورهم والجهر بدعوتهم . ولم تكن فيهم تلك النزعة الصوفية المشوبة بالزهد والعجز فى الحياة العملية التى تميز بها العلويون ، وجرت عليهم الإخفاق فى كل محاولة ، وصيرت تاريخهم سلسلة من المآسى المفجعة تستوجب الأسف ، وتستدر الدموع ، وجعلت الرجال العمليين يقعدون عن نصرتهم ، لأنهم لم يجدوا عندهم إيالة الملك ولا صيانة المال ولا مكيدة الحرب كما قال أحد هؤلاء الرجال العمليين وهو الأحنف بن قيس . ولكن كان ينقص بنى العباس القائد الحربى الموهوب المتدرب على وضع الخطط وتدبير المعارك وتنظيم القيادة . وقد أصابوه فى أبى مسلم . فلولا براعته الحربية وأساليبه العجيبة لأفلتت منهم الفرصة ، ولما أمكنهم أن يبتزوا ملك الأمويين وعلى رأسهم خليفة من أقدر رجالهم مثل مروان ابن محمد الذى لم تغض الهزيمة من مزاياه الحربية ، ولم يستسغ التاريخ أن ينكر عليه همته العالية ومواهبه الممتازة .

والذى يتدبر أخلاق هذين الرجلين – المنصور وأبى مسلم – يعرف أنهما شخصيتان قدر لهما أن يتصادما ، فكلاهما أنانى إلى أقصى حدود الأنانية لا يطيق أن يرى إلى جانبه منافساً فى نفوذه أو قسيما له فى ملكه ، وكلاهما مكيافلى من فرعه إلى أخمصه ، لا يعرف معنى للعواطف النبيلة أو المبادئ السامية إذا وقفت حجر عثرة فى سبيل أغراضه ، فأبو مسلم لم يتورع عن الإسراف فى القتل على الشبهة ، والغدر بأصدقائه وأعدائه على السواء ، والمنصور أول من قتل فى الإسلام على الملك عمه وابن أخيه ، وأظهر قسوة بالغة فى معاملته لأبناء عمه العلويين .

وكان أبو جعفر متبحراً فى دراسة الفقه الإسلامى ، وكان لهذه الدراسة تأثير كبير فى تكييف عقله وصقل تفكيره ، وقد مكنته من أن يدرك فى سهولة أوجه الشبه بين الأشياء دون أن تغيب عنه اختلافاتها الدقيقة ، وشحذت رغبته فى البحث والتقصى ، والصبر على الشك ، والتريث فى التفكير ، والاستعداد للمراجعة . وقد كانت حاسة النظام والترتيب فى نفسه أقوى من حاسة إدراك الجمال ، ولم يكن بطبيعته شديد الميل إلى النساء والتهالك على اللذات ، ولم يكن غالياً فى التأنق ، ولا شديد الولوع بالشعر ، فإن أعجب بشىء منه فإنما يعجب بالجانب التعليمى فيه وبما قد يتضمنه من مأثور الحكم وناضج التجارب ، وما يمكنه أن يستخرج منه درساً سياسياً أو قاعدة عملية ، وكما زادته دراسة الفقه استقامة فى التفكير وأناة فى إصدار الأحكام فكذلك طول صحبته للعلماء زادته بعداً عن الإسراف فى الترف ، والانغماس فى اللهو.

وكانت نشأة أبى مسلم سياسيةً عملية خالصة . وقد جمع بين براعة السياسى ومهارة القائد . وكان ينظر إلى أبى جعفر نظرة متأثرة بذلك الازدراء الخفى الذى يضمره رجال العمل وأبطال الميادين للعلماءِ ، وهذا الاحتقار المستور كثيراً ما يعمى أبعد الناس نظراً وأصدقهم فراسة عن مشاهدة مزايا الغير وتقدير مواهبه ، ولذلك لم يتيسر لأبى مسلم تقدير أبى جعفر تقديراً دقيقاً ، ولم يستطع وهو فى ريعان نفوذه ، وعنفوان انتصاره ، أن يدرك أن هذا الرجل هو نابغة قومه ، وباقعة عصره . ورجل العمل والكفاح فى حاجة ماسة إلى أن يكون معلمه من طراز أرسطو معلم الإسكندر ليوقر العلماء . ولم يلق أبو مسلم باله إلى تأثير الحوادث فى المنصور وكيف أفاد تجربة وحنكة . ولقد عاش أبو جعفر فى الظل والخفاء وعاش فى الضوء الساطع ، وعلمته الإقامة فى ذلك المنفى البعيد عن الحضارة بتلك القرية النائية المشرفة على الصحراء المسماة الحميمة أن يطيل التفكير ويجيد

وزن الأمور. وإذا كان الأنبياء المرسلون يخرجون إلى العالم من أعماق الوحدة والنواحى المهجورة فلا مانع من أن تكون تلك القرية الموحشة مدرسة للسياسيين الملهمين، والسياسة ضرب من الفلسفة العملية تشترك فيه التجربة والتفكير والبداهة والبصيرة، ومن نظر إلى الحياة من أعاليها وأعماقها، وذاق حلوها ومرها، لا تزدهف لبه ابتسامات الملق، ولا تطير به الوشايات والنمائم لأنه تعود مراجعة النفس وألف الحذر.

وأول ما وقع فى نفس أبى جعفر من أبى مسلم وكان له تأثير فى مستقبل العلاقات بينهما هو ما كان من رسول أبى مسلم لما قدم على أبى العباس عند بدء ظهوره واستعلان أمره، فقد دخل عليه الرسول لتبليغ تحية أبى مسلم وتقديم تهنئته، وكان أبو العباس جالساً مع أبى جعفر وجماعة من وجوه بنى العباس، فسأل الرسول: «أيكم ابن الحارثية؟» وكانت أم المنصور جارية بربرية اسمها سلامة. وكان أخوه أبو العباس أصغر منه سناً، ولكن إبراهيم الإمام أوصى له بالخلافة وآثره بالأسبقية لأن أمه عربية حرة، ولا نزاع فى أن هذا التفضيل المقصود كان يحز فى نفس أبى جعفر الذى كان يعرف قيمة نفسه ويرى أنه أحق بالخلافة وأقدر على النهوض بأعبائها من أخيه اللين المستضعف. وقد نكأت كلمة رسول أبى مسلم هذه القرحة فى نفس أبى جعفر، وهى فى تقديره إهانة لا يغتفرها رجل مثله شديد الحقد ألد العداوة.

أوفده بعد ذلك الخليفة أبو العباس إلى خراسان، وكان السبب الظاهر لذلك هو أخذ البيعة من أبى مسلم لأبى العباس ولأبى جعفر من بعده، وكان السبب الباطن هو الرغبة فى اختبار أحوال أبى مسلم وسبر غوره، لأن خيانة أبى سلمة الخلال ومحاولته نقل الخلافة إلى العلويين عقب مجىء الأخبار بوفاة إبراهيم الإمام أثارت شكوك العباسيين وجعلتهم يستريبون برجال دعوتهم ويحرصون على

الاستيثاق من إخلاصهم . وكان لهذه الرحلة تأثير كبير فى نفس أبى جعفر ، فقد رأى بعينه قوة نفوذ أبى مسلم ، ولمس عن قرب سعة سلطانه ، ومدى سطوته ، وتعلق أصحابه به وتفانيهم فى طاعته . ويظهر أن أبا مسلم لم يوفه حقه من الرعاية ، واستخف به بعض الاستخفاف ، واتفق فى أثناء وجود أبى جعفر هناك أن أبا مسلم اشتبه فى سليمان بن كثير كبير نقباء خراسان فدعاه إليه وقتله دون أن يستشير فى ذلك أبا جعفر أو يرجع إلى رأى الخليفة . فلما عاد أبو جعفر أفضى إلى أخيه بمخاوفه من استفحال نفوذ أبى مسلم ، وزين له الخلاص منه ، ولكن أبا العباس كان يستعظم الإقدام على ذلك ويخشى عواقبه فلم يعمل برأيه ، وأرسله إلى واسط ليتولى تضييق الحصار على ابن هبيرة ، وأبلى أبو جعفر فى هذه المهمة بلاء حسناً حتى اضطر ابن هبيرة إلى طلب الأمان ، وجرت السفراء بينهما ، وجعل له أبو جعفر أماناً وكتب به كتاباً مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء ردحاً من الزمن حتى رضيه واطمأن إليه ، ثم أنفذه إلى أبى جعفر ، فأنفذه إلى أبى العباس فأمره بإمضائه . وكان من رأى أبى جعفر الوفاء بما أعطاه ، ولكن أبا العباس استشار أبا مسلم ، وكانت فرصة لتوهين رأى أبى جعفر فأشار على أبى العباس بقتله لأن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ولا يصلح طريق فيه مثل ابن هبيرة . وعارض أبو جعفر فى ذلك معارضة شديدة ، فألح عليه أبو العباس حتى اضطر إلى تنفيذ أمره ، واستطاع أبو مسلم فى هذه المعركة أن يتغلب على أبى جعفر ، ويبرزه ملوثاً بدم الغدر موصوماً بنقض مبرم العهود .

ووجه أبو العباس أبا جعفر فى عقب ذلك والياً على الجزيرة ، وكانت بينه وبين أهلها وقعات وحروب شديدة ، ثم صالحوه ، واستقام أهل الجزيرة ، وحدثت هدنة اضطرارية بين الرجلين انصرف فى خلالها كل منهما إلى معالجة

شؤون ولايته وإخماد الفتن ورتق الفتوق . وبعد انقضاء أربعة أعوام عاد الخلاف بينهما على أشده ، وذلك لأن أبا مسلم كتب إلى الخليفة أبى العباس يستأذنه فى القدوم عليه للحج ، وكان ما يرمى إليه من وراء ذلك هو أن يظفر بشرف ولاية الحج توطيداً لمركزه وتوسيعاً لنفوذه ، وأدرك أبو العباس قصده ورأى فى ذلك ما يزيده علوّا وتمكيناً . وبعد إعمال الفكرة للحيلولة دون ذلك كتب إلى أبى جعفر يستحثه على أن يستأذنه فى الحج حتى لا يطمع أبو مسلم فى تقدمه عليه ، ورحب أبو جعفر بهذه الفرصة التى عنت له لمراغمة خصمه ، فلبى الطلب وكتب الرسالة ، ولما علم أبو مسلم بذلك اضطغنها على أبى جعفر .

وقدم أبو مسلم الأنبار فأمر الخليفة أبو العباس أن يتلقاه القواد وأعيان الدولة وسائر الناس ، وأعظمه وأكرمه ، وقدم أبو جعفر من الجزيرة ، واتفق فى أثناء وجودهما بالأنبار أن دخل أبو مسلم على أبى العباس وأبو جعفر حاضر ، فسلم على الخليفة أبى العباس ولم يسلم على أبى جعفر ، فاسترعى الخليفة التفاته إلى أبى جعفر فقال أبو مسلم «إنى قد رأيته ولكن هذا مقام لا يقضى فيه حق غيرك» وهو تخلص لبق اكتفى به أبو العباس الذى كان لا يرى كبير بأس فى بقاء ما بين هذين الفحلين متباعداً ، وعاد أبو جعفر يلح على أخيه فى ضرورة القضاء على أبى مسلم ، وأغراه باغتياله ، ولكن أبا العباس كان لا يزال يتخوف الإقدام على ذلك ، وسارا بعد ذلك فى طريقهما إلى الحج ، وكانت مباراة محتدمة ومنافسة مكشوفة ، استطاع أبو مسلم أن يكون فيها أبعد صوتاً وأخلب مظهراً من أبى جعفر ، فقد تحرى استصلاح الطريق وحفر الآبار ، وكسوة الأعراب ، وأغدق عليهم العطايا ، وتعهدهم بالطعام ، ولم يكن أبو جعفر بطبيعته ميالا إلى الجود ، واجتذاب القلب ، وكان يؤثر على الدوام أن يكون مخشى الجانب مرهوب السطوة ، ولما صدرا من الحج ترامت إليهما الأنباء بوفاة الخليفة أبى العباس ،

فدعا ابوجعفر الناس إلى البيعة، وبايعه أبومسلم بعد تلكؤيسير، وأظهر أبو جعفر لأبي مسلم تخوفه من شر عمه عبد الله بن علي وشيعته . ولما أخذ عمه البيعة لنفسه أشار أبو جعفر على أبي مسلم بالتوجيه إلى قتاله لأن عامة جنده ومن معه من خراسان . وكان أبو مسلم يحاول جهده الإسراع في العودة إلى خراسان ، ويؤثر أن يخلي ما بين أبي جعفر وعمه عبد الله ، وكانت الحجة التي أبداها للمنصور هي أن أمر عبد الله قليل الخطر ، وأن أمر خراسان أعظم شأناً وأهول خطراً مما يستدعي بقاءه هناك . ولكن أبا جعفر ألحّ عليه ، وأغرى بعض رجاله بتحويله عن رأيه حتى قبل أخيراً التوجه لإخماد حركة عبد الله ، وقد استلزم القضاء عليها مجهود ستة أشهر انتصرت في نهايتها حركات أبي مسلم الموفقة القوية على حركات عبد الله الضعيفة . وفي خلال هذه المدة أتم أبو جعفر تدبير الخطة للقضاء على أبي مسلم . ولم يكن أبو جعفر يجهل حاجته إلى قائد عظيم ووزير قدير مثل أبي مسلم ، والدولة في طالعة أمرها ، والمتربصون بها كثيرون ، والطامعون فيها لا يخلون من قوة وبأس ، وكان يعرف أن أبا مسلم هو مدبر المؤامرات الناجحة ، وراسم الخطط المثمرة ، ولكنه وازن بعقله الحسّاب بين الضرر والمنفعة ، ولما قطع بالرأي لم يتردد في العمل على تنفيذه لأن الرجل كان لا يعرف الهوادة ، ولا تغلبه العاطفة في مواقف الخطورة ومواطن الجد . وقد كان أبو مسلم كلما سما مقامه ، وطغى نفوذه ، أصبح خطراً كبيراً على نفوذ الخليفة ، فليس هو الآن منقذ بيته ، ورافع دعائم ملكه ، والحاجز المنيع ضد الثورات ، وإنما هو مناظر مخوف الجانب يستطيع أن يفسد عليه أمره ويسلبه ملكه ، وكان المنصور قد حكم منذ زمن على أبي مسلم بالإعدام بينه وبين نفسه وهو حكم أنتجه التفكير الهادئ والمنطق الذي لا يرحم ، وزادته الأيام إيماناً بصحة ذلك الحكم وضرورته .

وكان أبو مسلم خلال أداء تلك المهمة التى أناطها به المنصور– وقبلها مضطراً كارهاً– ناقماً على المنصور، ولم يستطع أن يقمع استخفافه به وموجدته عليه ، فكان يأتيه منه الكتاب فيقرؤه ثم يلوى شدقه ويرمى بالكتاب إلى صديقه الحميم أبى نصر– مالك بن الهيثم– فيقرؤه ويضحكان استهزاء . وقد ساء ذلك القائد البارع الحسن بن قحطبة فأرسل إلى أبى أيوب المورياني وزير المنصور رسالة شفوية ضمنها ارتيابه بأبى مسلم .

وكان المنصور يحاول الآن– وقد انتوى إزاحة أبى مسلم من طريقه– ألا يبدو قتله فى صورة الغدر الأثيم والخيانة الصارخة . والوسيلة الوحيدة لذلك هى أن يستفز إياه ، ويثير غضبه حتى يخرج عن طوره ، ويجد المنصور إذ ذاك مسوغاً لقتله أمام أتباعه . فلما انهزم عبد الله بن على وكتب أبو مسلم إلى المنصور بذلك أرسل المنصور رسولا من قبله لإحصاء الغنائم وتحصيل الأموال ، وكان يعلم ما فى ذلك من الإساءة إلى أبى مسلم الذى تعود الاستمتاع بالسلطة المطلقة بلا رقيب ولا حسيب . فلما قدم عليه الرسول وعلم بمهمته لم يستطع أن يكظم غضبه ، وبسط لسانه فى أبى جعفر وهمّ بقتل الرسول لولا تدخل أصحابه . فعاد الرسول إلى أبى جعفر وأخبره بذلك . وكان المنصور يحاول جهده أن يحول بينه وبين خراسان ، فأرسل إليه رسولا آخر معه كتاب يخبره فيه بأنه قد ولاه مصر والشام وأنهما أحسن له من خراسان ، وأن يوجه إلى مصر من يشاء من قبله ويقيم هو بالشام ليكون قريباً من الخليفة ، فلما جاءه هذا الكتاب عرف غرض أبى جعفر وغضب واعتزم المضى إلى خراسان ، وأقبل من الجزيرة مجمعاً على الخلاف . والواقع أن أبا مسلم كان قد تعود السلطة وأن يقطع برأيه ويتصرف بحسب هواه ، وأن يأمر فيطاع ويستشار ويستنصح فيعمل بمشورته ، ويؤخذ بنصيحته ، ولم يكن يستطيع الآن أن يصانع ويتملق ، ويخطب الود ويلتمس الرضى ، وغير

غريب أن يتحدى ويغاضب . ومن الصعب على الإنسان أن يصل إلى ذروة السلطة المطلقة والسيطرة الكاملة على الناس ثم يتنازل عن ذلك كله فى يسر وسهولة وعند أول إشارة . وقد تحول الأمر بأبى مسلم من عدم الاكتراث لأبى جعفر إلى العناد والإصرار ، ومن العناد والإصرار إلى التحدى الظاهر ، والمخالفة الصريحة ، وقد زاده الانتصار الأخير اعتزازاً برأيه ، وإدلالاً بمكانته ، وشدة شعور بعظمة شخصيته . وكان المنصور من ناحية أخرى يريد النظام ، ويأبى الفوضى فى أية صورة من الصور ، ومثل هذا الرجل لا يطيق أن يرى مناظراً له فى سلطانه ، ولا يسمح بأن يعيش فى ظل ملكه الوريف معارض واحد هادئ البال مصون الدماء .

وخرج أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبى مسلم فى المسير إليه ، فكتب إليه أبو مسلم وقد نزل الزاب وهو على الرواح إلى طريق حلوان : «إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى» .

ولما وصل هذا الكتاب إلى أبى جعفر كتب إلى أبى مسلم : «لقد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإنما راحتهم فى انتثار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك بهم وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه ؟ وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سماع

ولا طاعة ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك » .

واختار أبو جعفر من رجاله أبا حميد المروروزى ليحمل الكتاب إلى أبى مسلم ورسم له الخطة التى يسلكها بعد تقديم الكتاب ، وهى أن يبدأ فيكلم أبا مسلم بألين كلام ، ويلوح له بالوعود ويمنيه الأمانى ، ويستفرغ فى ذلك جهده ، ويحذره عاقبة البغى ، فإن أصر على المخالفة ، وصرح بالعصيان ويئس منه يبلغه هذه الرسالة الشفوية وهى أن أمير المؤمنين يقول له « لست للعباس وأنا برىء من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتنى إن وكلت أمرك إلى أحد سواى وإن لم آل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك » وأوصى المنصور من حضر من بنى هاشم أن يكتبوا إلى أبى مسلم يعظمون أمره ، ويشكرون ما كان منه ، ويحذرونه عاقبة الغدر ويأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين وأن يلتمس رضاه .

* * *

وسار أبو حميد فى جماعة من أصحابه ممن يثق بهم حتى قدموا على أبى مسلم بحلوان ، فدخل أبو حميد ومعه أصحابه ودفع الكتاب إلى أبى مسلم ، وقال له : إن الناس يبلغونه عن أمير المؤمنين ما لم يقله وخلاف ما عليه رأيه فيه حسداً وبغياً ، يريدون إزالة النعمة وتغييرها ، ونصح له ألا يفسد ما كان منه ، فكبر هذا الكلام على أبى مسلم لأن أذنه لم تتعود سماع النصائح ، فالتفت إلى أبى حميد وقال له فى كبرياء وأنفة : « متى كنت تكلمنى بمثل هذا الكلام ؟ » فقال له أبو حميد : « لقد دعوتنا إلى طاعتهم ، أفتريد حين بلغنا منتهى أملنا أن تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا ، وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وإن خالفتكم فاقتلونى ؟ » .

وكان إلى جانب أبي مسلم صديقه الحميم مالك بن الهيثم ، فأقبل عليه وقال : «أما تسمع ما يقول هذا ! ما هذا بكلامه يا مالك ! » .

فقال له مالك : «لا تسمع كلامه ولا يهولنك هذا منه ، ولعمرى لقد صدقت ما هذا كلامه ، ولما بعد هذا أشد منه ، فامض لأمرك ولا ترجع . فوالله لئن أتيته ليقتلنك وقد وقع فى نفسه منك شىء لا يأمنك بعده أبداً » .

وأراد أبو مسلم أن يخلو بنفسه فصرف القوم وأخذ يفكر ويقلب الأمر على وجوهه ، ولما أتعبه التفكير استدعى نيزك وكان موضع ثقته وكاتم سره . فلما أقبل نحوه نيزك التفت إليه أبو مسلم وهو يحاول أن يتكلف الابتسام ، ويخفى اضطراب خواطره ، ويتظاهر بقلة الاهتمام وقال له : «يا نيزك إنى والله ما رأيت طويلا أعقل منك فما ترى ؟ فقد جاءت هذه الكتب وقال القوم ما قالوا» فقال له نيزك : «لا أرى أن تأتيه وأرى أن تأتى الرى فتقيم بها فيصير ما بين خراسان والرى لك وهم جندك ما يخالفك أحد ، فإن استقام لك استقمت له وإن أبى كنت فى جندك ، وكانت خراسان من ورائك ورأيت رأيك» .

واطمأن أبو مسلم إلى هذا الرأى ، وعول على الأخذ به ، ودعا أبا حميد وقال له : «ارجع إلى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه» .

فقال له أبو حميد : «أوقد عزمت على خلافه ؟» .

فقال له أبو مسلم : «نعم» .

فقال له أبو حميد : «لا تفعل» .

فقال أبو مسلم وقد بدت على وجهه علامات الإصرار : «ما أريد أن ألقاه» .

* * *

وهنا لم يجد أبو حميد بداً من أن يبلغه رسالة أبى جعفر الشفوية . فلما سمعها

أبو مسلم وجم طويلا ، وأخذت تتكشف له طبيعة الرجل الذى يريد مخالفته ، وكأنما رفع عن بصره الغطاء فى تلك اللحظة ، وأدرك أنه أفرط فى تحدى خليفته ، وكان أبو مسلم يعلم جيد العلم أن سلطان أبى جعفر قائم على دعامتين قويتين ليس من السهل هدمها ، وهما قوة الدين وشرف النسب . وقد حاول أبو مسلم من قبل أن ينتزع جانباً من هذا الشرف ويخلعه على نفسه وذلك بادعائه أنه من ولد سليط الذى كان ينسبه الأمويون إلى عبد الله بن العباس نكاية فى أولاده ، وبمحاولته مرة أخرى أن يخطب إلى المنصور عمته أمينة بنت على . وراعه هذا التهديد المكشوف الذى يشف عن صدق العزيمة والاستهانة بالخطر . وكان أبو جعفر عندما حاول استفزاز أبى مسلم قد احتاط للأمر وأخذ يحرك المنافسة والحسد فى قلوب مناظرى أبى مسلم وحاسديه ، فكتب إلى أبى داود خليفة إبى مسلم على خراسان يوليه أمر خراسان ما بقى ، فكتب أبو داود إلى أبى مسلم من رسالة «إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه (ص) ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه» . ووافاه الكتاب وهو فى تلك الحال من تبلبل الفكر وتضعضع العزم فزاده هماً ورعباً ، وهنا ارتبكت أعصاب الرجل وتحللت عزيمته ، فاستدعى رسول أبى جعفر وصديقه مالكا وقال لهما : «إنى قد كنت معتزما المضى إلى خراسان ثم رأيت أن أوجه أبا إسحق إلى أمير المؤمنين فيأتينى برأيه فإنه ممن أثق به» ولما قدم رسول أبى مسلم على المنصور تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب ، وقال له المنصور : «اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان» وأجازه فرجع أبو إسحق إلى أبى مسلم وقال له : إنه لم يجد من القوم ما ينكره وإنهم معظمون لحقه . وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان . وكان أبو جعفر قد نجح فى أن يهز ثقة الرجل بنفسه ، وأن يعطل قوة رأيه القاطع ، فأجمع على العودة إلى الخليفة لأنه لم يجد بدًّا من ذلك ، وحاول نيزك أن يثنيه

عن الرجوع ، ولكن أبا مسلم كان يشعر بقوة قاهرة تجبره على الذهاب ، ولما أطال عليه نيزك تمثل أبو مسلم قائلا :

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام

فقال له نيزك وقد عجز عن إقناعه ورده عن عزمه : «أما وقد عزمت على هذا فاحفظ عني واحدة ، إذا دخلت عليه فاقتله ، ثم بايع لمن شئت فإن الناس لا يخالفونك» .

وكتب أبو مسلم إلى أبي جعفر يخبره أنه منصرف إليه ، ولما طوى أكثر الطريق تلقاه رجل من قواده ، وحذره ونصح له بالعودة ، فاشتدت مخاوفه ، وكثرت هواجسه ، وخايلته فكرة العودة فتردد وتلبث ، ولكن الشبكة المحكمة لم تمكنه من الإفلات ، وأحس الرجل بشدة وطأتها وعجزه عن النجاة فاستسلم للقضاء ، وكان المنصور الذى لا تنفد حيله يدس عليه رجالا ليبلغوه ما ينفى عنه الوساوس ويوحى إليه الطمأنينة ، ولما شارف المدائن أمر المنصور الناس فتلقوه ، واحتفى بمقدمه القواد والرؤساء وأعيان العباسيين . ولما دخل المدائن كان النهار قد أدبر وأرخى الليل سدوله ، وجلس أبو جعفر ينتظر قدومه وقد حفه صمت عميق ووقار رهيب ، ودخل أبو مسلم على المنصور وسلم ، والتقى الرجلان وجهاً لوجه على ضوء الشموع وكان أحدهما وهو المنصور أسمر اللون رقيق السمرة ، طويلا نحيفاً خفيف العارضين عليه أبهة الملك وجلال النسك ، وكان الآخر – وهو أبو مسلم – قصيراً أسمر أحور العين عريض الجبهة ، وافر اللحية ، ساهم الوجه ، شارد الفكر ، يحاول جهده أن يتماسك ويتجلد ، ولم يغب عن عين المنصور ما يعانيه أبو مسلم من الاضطراب الخفى فتلطف معه ، وترفق به ، واحتفى بمقدمه ، وتهللت فى وجهه المهيب الدائم العبوس تلك الابتسامات التى يتخذها الساسة قناعا يسترون به مبهم النيات ، وخفى الأغراض . ولم يطل قيام أبى مسلم ، فقد

أذن له الخليفة بالانصراف لينفض عنه غبار السفر ويرتاح من وعثائه ، وقد حاول كل منهما فى خلال تلك اللحظات القصار التى قضياها معاً أن يتغلغل بنظراته الحادة إلى سريرة صاحبه ، وخرج أبو مسلم وقد ذهب به الفكر كل مذهب ، ولعله لم يشعر فى تلك الليلة بما حفلت به المدائن من أصوات البشائر ، وبما أقيم لقواده ورجال حاشيته من الولائم والحفلات ، وآوى إلى فراشه مبكراً ، ونستطيع أن نتصور أبا مسلم فى تلك الليلة متململا فوق فراشه لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال ، ولم تستطع مظاهر الحفاوة والتكريم التى قوبل بها أن تبدد مخاوفه وتنفى عنه الأفكار السود ، وأخذت كلمات التحذير التى قالها له صديقه أبو نصر وصاحبه نيزك تدوى فى أذنه دوياً ، وترن رنيناً محزناً ، ولعله أخذ يعجب من نفسه وكيف جاء إلى المدائن وسعى إلى حتفه ، وكيف خذلته شجاعته والتوى عليه الرأى وهو الجندى الباسل والسياسى الخطير . وكان يشعر بعزلته وأنه وحيد فى عالم غريب ، وأن الخطر الذى يهدد حياته قد صار على كثب منه . ولما مضى الهزيع الأول من الليل هدأت الحركة فى المدائن ، وهمدت الأصوات ، وران الكرى على الجفون ، ولكن بقى رجلان ساهرين ، أحدهما أبو مسلم الذى كان يفكر فى مصيره وما تخبئه له الأقدار ، ويخشى أن يغدر الخليفة بأقدر رجاله وأعقل وزرائه ، والآخر المنصور وقد أخذ يلوم نفسه لأنه لم يهتبل الفرصة ويقتل أبا مسلم عند ما ملأ عينيه منه ، ويريح نفسه ويشفى غلته ، وصار يستطيل الليل ويرقب تباشير الصباح فى قلق وحذر.

ولما أقبل الصباح استدعى المنصور أربعة من رجال حرسه الأشداء ، وعرفهم بالمهمة الموكولة إليهم ، فهالهم الأمر ، ولكنهم لم يجترئوا على المخالفة ، وأوصاهم بالوقوف خلف الرواق وأن يبرزوا إذا ارتفع صوته وصفق بيديه ويقتلوا أبا مسلم .

وأصبح أبو مسلم متعباً حزيناً لما عاناه من أرق وتسهيد ، وما ساوره من أفكار وهموم ، وكانت بينه وبين عيسى بن موسى ابن أخي المنصور صداقة ومودة ، فأتى منزله وتناول عنده الغداء ، وفى خلال الحديث أنشد عيسى :

سيأتيك ما أفنى القرون التى مضت
وما حل فى أكناف عاد وجرهم
ومن كان أنأى منك عزًّا ومفخراً
وأنهد بالجيش اللهام العرمرم

فالتفت إليه أبو مسلم وقد امتقع وجهه وقال له : «هذا مع الأمان الذى أعطيت ؟» فقال له عيسى : «أعتق ما أملك إن كان هذا لشىء من أمرك وما هو إلا خاطر أبداه لسانى» فقال أبو مسلم : «فبئس الخاطر والله إذن» . وبعد قليل وافاه رسول الخليفة يدعوه إلى الحضور ، فقال له عيسى : «لا تعجل بالدخول حتى أحضر وأدخل معك» . فأبطأ عيسى بالوضوء ، ومضى أبو مسلم ، فلما همّ بالدخول على الخليفة جرده البواب من سلاحه ، فدهش لذلك ، ولما مثل بين يدى الخليفة شكا إليه ما صنع به فطيب المنصور خاطره ، وأقبل بعد ذلك عليه يعاتبه ، ويحصى عليه ذنوبه ، وينعى عليه زلاته ، وشدد النكير على سلوكه نحوه ، وكيف كان يتقدمه فى طريق الحج ، وكيف كان يكتب إليه فيبدأ بنفسه ، وكيف أقدم على قتل سليمان بن كثير مع بلائه فى دعوتهم ، وكان أبو مسلم يرد على ذلك بكياسته المعهودة ، ولما أكثر عليه المنصور أخذته العزة فقال له : «لا يقال لى هذا بعد بلائى فى دولتكم وما كان منى» . فغضب المنصور وقال له : «لوكانت أمة مكانك لأجزت ناحيتها ، إنما عملت ما عملت فى دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا» وسبه بعد ذلك وذكره كيف تطاول إلى خطبة عمته وادعى أنه من ولد سليط ، وغلت مراجل

المنصور ، وانفتقت فى نفسه شهوة الانتقام ، ولاحت فى عينه بوارق الغضب والحقد ولوائح الغدر ، وأدرك أبو مسلم خطورة الموقف فأخذ يعرك يده ويقبلها ويحاول تهدئة ثائرته ، وتزايد غضب المنصور وصفق بيديه فبرزت الرجال بالسيوف ، ولم تزد أول ضربة على أن قطعت حمائل سيفه فقال : «يا أمير المؤمنين استبقنى لعدوك» فقال له المنصور : «لا أبقانى الله إذن وأى عدو أعدى لى منك» وصاح برجاله : «اضربوا قطع الله أيديكم» ولما توالت على أبى مسلم الطعنات خارت البقية الباقية من شجاعته ، وانطوى إباؤه ، وارتجف من الموت هذا الرجل الذى أذاق الألوف طعم الموت وجرعهم مرارته وصار يلتمس العفو فى ذلة وضراعة حتى عجب المنصور وقال له «العفو وقد اعتورتك السيوف» .

ووقف المنصور أمام فريسته كالوحش الضارى ينشد :

زعمت أن الدين لا يقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقى بها أمر فى الحلق من العلقم

ودخل بعد ذلك عيسى بن موسى ، وسأل عن أبى مسلم فقال له المنصور «ها هو ذاك فى البساط» فأبدى عيسى أسفه وتفجعه ، وذكر إخلاص أبى مسلم وطاعته فقال له المنصور : «خلع الله قلبك وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟» وأمر المنصور فحملت بقايا أبى مسلم ورمى بها فى دجلة ، وبعث إلى عدة من قواده بجوائز سنية وأعطى جميع جنده حتى رضوا ، ورجع أصحابه وهم يقولون : «لقد بعنا مولانا بالدراهم» .

ومرت على هذه الحادثة أعوام وبينما كان المنصور ذات ليلة يسمر مع جماعة من خاصته قال لهم «ثلاثة كن فى صدرى شفى الله منها ، كتاب أبى مسلم إلىّ وأنا خليفة الذى قال فيه «عافانا الله وإياك من السوء» ، ودخول رسوله علينا وقوله «أيكم ابن الحارثية» ، وضرب سليمان بن حبيب ظهرى بالسياط» .

وطوى عصر المنصور ، ودارت الأيام دورتها ، وضرب الدهر ضرباته وتسنم عرش الخلافة أحد حفدته وهو عبد الله المأمون ، وجلس ذات ليلة يسمر مع رجاله حاشيته ، ودار الحديث على أبطال التاريخ فقال لهم «أجل ملوك الأرض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدول الإسكندر المقدونى ، وأردشير ، وأبو مسلم الخراسانى» ! .

وقد كان قتل أبى مسلم ضرورة سياسية ، ومحاولة جبارة قام بها المنصور لصد تيار النفوذ الفارسى ، واستفحال أمره ، وأعادها بعده الرشيد بإيقاعه بالبرامكة ، وكررها المأمون باغتياله الفضل بن سهل . ولكنهم لم يوفقوا فى تلك المحاولة العنيفة التوفيق كله لأن تغيير مجرى الحوادث فى كثير من الأحوال من وراء قدرة الرجال ولو كانوا من طراز المنصور والرشيد والمأمون .

فصول من حياة الحكم أمير الأندلس

(١)

مؤامرة الفقهاء–وقعة الحفرة

بعد وفاة أمير الأندلس العظيم عبد الرحمن الداخل–صقر قريش–خلفه على الإمارة ابنه الأمير هشام ، وكان هشام رجلا رضى الأخلاق ، كامل المروءة ، عميق العاطفة الدينية . وقد زاده إقبالا على الدين وميلا إلى الزهد تلك النبوءة الغريبة التى سمعها من أحد منجمى عصره ، وذلك أنه عندما ولى أشخص المنجم المعروف بالضبى من وطنه–الجزيرة الخضراء–إلى قرطبة ، وكان بارعاً فى علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية ، فلما أتاه خلابه وقال له : «يا ضبى ، لست أشك أنه قد عناك من أمرنا إذ بلغك ما لم تدع تحديد النظر فيه ، فأنشدك الله إلا ما نبأتنا بما ظهر لك فيه» ! .

فاضطرب المنجم ولجلج ، واعتذر قائلا : «اعفنى أيها الأمير ، فإنى ألممت به ولم أحقق النظر فيه لجلالته فى نفسى» .

فقال له هشام «قد أجلتك لذلك ، فتفرغ للنظر فيما بقى عليك منه» .

وبعد أيام أحضره وقال له : «إن الذى سألتك عنه جد منى ، مع أنى والله ما أثق بحقيقته ، إذ كان من غيب الله الذى استأثر به ، ولكنى أحب أن أسمع ما عندك فيه ، فالنفس طُلَعَةٌ» وألزمه الصلة أو العقوبة .

فلم يجد الضبى مناصاً من أن يفضى إلى الأمير بما كشفته له الطوالع ،

فتشجع وقال «اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقر ملكك ، سعيداً جدك ، قاهراً لمن عاداك ، إلا أن مدتك فيا دل عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها » .

فأطرق هشام ساعة ، ثم رفع رأسه وقال «يا ضبى ما أخوفنى أن يكون النذير كلمنى بلسانك ، والله لو أن هذه المدة كانت فى سجدة لله تعالى لقلت طاعة له » ووصله وخلع عليه .

أثرت نبوءة الضبى فى نفس هشام المطبوعة على التدين ، فأعرض عن لذات الدنيا وزخارف الحياة ، وعمل على مراقبة نفسه واستنقاذ روحه ، فكان يلبس أبسط الثياب ، ويطوف بقاعدة ملكه ، ويمتزج بالناس ، ويحاول أن يتعرف حاجاتهم ، وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز ، ويتصدق بالصدقات الكثيرة ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الشديدة المطر ومعه صرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوى البيوتات من الضعفاء ، وكان يصر الصرر بالأموال ويبعث بها فى سواد الليل والمطر يتساقط والرياح تتناوح إلى المساجد ، فتعطى من وجد فيها ، يريد بذلك عمارة المساجد . وهكذا ذهب بسيرته مذهباً قوى الشبه بمذهب الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكُور فيسألون عن سير العمال ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ، ولم يستعمله بعد .

وقد شاءت الأقدار القاسية أن يتورط هذا الأمير التقى الورع فى الخطأ الذى طالما استهدف له البررة الصالحون من الأمراء ، وهو تمكين رجال الدين من أن يزجوا بأنفسهم فى تصريف شؤون الدنيا ، وتدبير سياسة الدولة ، وهى أمور لم يهيأوا لها بحكم ملكاتهم الأصلية ونشأتهم الفكرية التأملية ، وقد كان أبوه الداخل شديد الغيرة على سلطته ، فلم يسمح لرجال الدين بأن يصلوا إلى مكانة تمكنهم من اعتراض سبيله والمساهمة فى تدبيرلته . ولكن هشاماً لم ترقه هذه

السياسة ولم يفكر فى عواقب الانحراف عنها ، وكان يحب أن يضع ثقته فى هؤلاء الرجال الطاهرين أعلام الهداية ، وأقطاب الفقه ، ولم يستطع –لاستغراقه فى الورع وإمعانه فى الصلاح– أن يلمح فى نفوسهم موقع حب السيطرة ومكمن المطامع . ولم يقصر رجال الدين فى انتهاز هذه الفرصة الذهبية الثمينة التى لاحت لهم ، فوطدوا مكانتهم ، وحصنوا مواقعهم ، وبسطوا نفوذهم ، وبلغوا فى ذلك شأواً بعيداً .

وفى هذه الفترة ظهر فى الشرق مذهب حديث من مذاهب الفقه الإسلامى ، وهو مذهب مالك بن أنس ، وكان هشام يضمر الاحترام العظيم لهذا الإمام الكبير . ولم يكن مالك محبوباً من العباسيين لأنه كان متهماً عندهم بالميل إلى العلويين . وكان مالك يميل إلى هذا الأمير المناوئ للعباسيين ، ولما أثنى بعض تلامذة مالك على هشام اشتد إعجابه به وأكثر من الثناء عليه ، ولما وصفه له زياد بن عبد الرحمن قال مالك : «نسأل الله أن يزين موسمنا بمثل هذا» . وكان تلامذة مالك من الأندلسيين يبلغون هشاماً ثناء مالك عليه فيعجبه ذلك ويسره ، وكان من بواعث تأييده لمذهب مالك ونشره فى ربوع الأندلس .

ولما مات هشام سنة ٧٩٦ ميلادية (١٨١ هجرية) كان مذهب مالك غالباً على الأندلس ، وكان بين أنصاره البارزين طائفة من الشبان الأقوياء ذوى الطموح ، بينهم أبو محمد بن يحيى بن يحيى بن كثير ، وأصله من البربر من مصمودة ، وقد رحل إلى المشرق فسمع الموطأ من الإمام مالك وقال عنه مالك : «هذا عاقل الأندلس» وكان يحيى شخصية قوية امتزج فيها الطموح السياسى بالحماسة الدينية .

وخلف هشاماً ابنه الحكم ، وكان فتى غض الإهاب مشبوب الأحاسيس لا يتجاوز عمره السادسة والعشرين ، وكان على ما يظهر قد عقد العزم على

النهوض بتكاليف الإمارة والانفراد بتبعاتها ، لاعتقاده أن تصريف شؤون الدولة وتقرير اتجاهاتها حق من حقوقه التى لا يصح أن ينازعه فيها منازع .

ولم يكن الحكم ماجناً خليعاً خارجاً على الدين مستخفًّا برجاله ، بل كان على نقيض ذلك يميل إلى رجال الدين ، ويجد متعه فى أحاديثهم ، ويحترم القضاة ويذعن لأحكامهم ، وإنما كان رجلاً مكتمل الرجولة ، محبًّا للحياة حريصاً على الاستمتاع بها ، لا يجد داعياً للزهد فى متعها المباحة والتخلى عن نعيمها المشروع ، وقد كرهه رجال الدين لأنه لم يسلس لهم قيادة ، ولم يفتح لهم صدره وأذنه ويشركهم فى أمره ، على أن الحكم – كأكثر خلق الله – لم يكن معصوماً من العيوب ولا خالياً من المساوئ ، وربما كان فيه بعض العيوب الخطيرة التى تنتقص الرجال وتعيب الحاكمين ، ولكن رجال الدين لم يكونوا فى موقف يسمح لهم بأن يوازنوا موازنة هادئة نزيهة بين حسناته وسيئاته ، فقد فجعهم فى أحب شىء إلى الإنسان وهو «حب القوة» . ولذلك اختلت موازين هؤلاء القوم الصالحين ، وصاروا فى حالة نفسية تجعلهم يعتقدون أن فى ترويج المبالغات عن سوء سيرته ، وتلفيق الأراجيف حول أعماله ، تأييداً للفضيلة المهدرة المضيعة وحرصاً على الدين المستباح الحمى المهمل الجانب ، ومن المرجح إلى حد كبير أنهم كانوا على استعداد – ربما كان تامًّا – للإغضاءِ عن عيوبه ، وإسدال الحجب دون سيئاته لو أنه منحهم السلطة وحباهم النفوذ .

ولما خاب أمل رجال الدين فى استمالته واجتذابه إلى صفوفهم لم يجدوا بأساً فى أن يتحولوا إلى قادة شعبيين يحمسون الشعب ، ويثيرون سخطه على الحكم ، ويستغلون سذاجة العامة ويتخذونهم وسيلة لأغراضهم ، وقد وجدوا فى تقبيح سيرته ، وتشويه صورته ، مادة خصبة للمواعظ الحارة ، والأدعية المبتكرة ، واعتصروا شاعريتهم فى نظم أشعار الزهد والحض على قيام الليل فى الصوامع ،

وخلطوا بذلك شيئاً من التعريض به مثل أن يقولوا «يا أيها المسرف المتمادى فى طغيانه ، المصر على كبره المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك» وما نحا هذا النحو.

وكان فى قرطبة جماعة كبيرة من «المولدين» وهم من الذين دخلوا فى دين الإسلام بعد الفتح ، وكان أكثرهم فى الأصل من طبقة العبيد ، وكان هؤلاء القوم أقوياء ناشطين ، وكانوا متبرمين بحالتهم متذمرين من معاملة العرب لهم ، متحفزين للثورة للتنفيس عن كربهم ، ولذا استجابوا لتحريض المحرضين ، ووجد الفقهاء فى نفوسهم مرتعاً خصباً ، فأصبحوا طوع بنانهم وطوع إشارتهم . وفى ذات يوم تطاولوا على الأمير وقذفوه بالأحجار وهو يسير فى شوارع قرطبة ، واضطر هو ورجاله إلى أن يشقوا طريقهم بأطراف السيوف ، وأخمدت الثورة .

وحاول رجال الدين بعد ذلك خلعه والخلاص منه ، فتآمر يحيى وعيسى ابن دينار وغيرهما من أعلام الفقعاء مع جماعة من الأشراف ، وعرضوا الإمارة على ابن عم له يعرف[1] بابن الشماس من ولد منذر بن عبدالرحمن ، وخاضوا معه فى ذلك ، فأظهر لهم الإجابه وقال لهم : «عرفونى بمن معكم فى هذا الأمر» فواعدوه ليوم بعينه ، ثم قصد بنفسه إلى الحكم وأعلمه بذلك ، فشك الحكم فى قوله ، واستكثر أن يقف العلماء منه هذا الموقف فقال له وقد أخذ منه الغضب : «أردت أن تغرينى بأعلام بلدى ، والله لتصححن هذا عندى أو لأضربن رقبتك» فقال له ابن شماس : «إبعث إلى أمينك ليلة كذا» ، فبعث إليه فتاه «بزنت» وكاتبه ابن الحذا ، فأقعدهما بمكان وراء ستار بحيث يسمعان

---

(١) فى ابن عذارى أن اسم ابن عمه هذا محمد بن القاسم وكذلك فى ابن خلدون وقد أخذت برواية ابن القوطية لأنه أقدم عهدا منهما وأكثر استيفاء لتفصيلات هذه المؤامرة.

ما يدور بينه وبينهم ، فأتوه وأداروا الأمر ، فقال لهم : «من معكم فى هذا الأمر؟» فأخذوا فى ذكر طائفة كبيرة من الأسماء ، واتسعت القائمة وشملت أسماء كثيرة ، وخشى ابن الحذا أن يذكر اسمه ضمنهم ، فصوت بالقلم فى الرق فثار القوم وقالوا لابن شماس : «فعلتها يا عدو الله !» ولاذ كثير منهم بالفرار بينهم عيسى بن دينار فقيه الأندلس ويحيى بن يحيى ، وقبض على نحو اثنين وسبعين من الباقين بينهم ستة من كبار الفقهاء وصلبوا جميعاً .

وثار أهل الربض بقرطبة فى السنة التالية وشهروا السلاح ودارت الحرب بينهم وبين الجند ، وكان ذلك فى أثناء غياب الحكم بالمريدة ، فعاد مسرعاً وأخمد الثورة ، وأطار رؤوس أشد الثائرين خطراً .

على أن هذا القتل لم يكن كافياً لإرهابهم وإرغامهم على الطاعة ، وقد حدثت بعد ذلك وقعة الحفرة فى طليطلة فأظهرت لهم أن الحكم من هؤلاء الأمراء الجبابرة الذين لا يحجمون عن الغدر والخيانة والولوغ فى الدماء إذا كان ذلك لازماً لتثبيت قواعد ملكهم وتخضيد شوكة أعدائهم ، وقد كان الحكم ميالاً إلى الصفح وسياسة الأمور فى رفق واعتدال ، ولكن حب التمرد والعصيان الذى كان مستحكماً فى نفوس رعيته جعله ميالاً إلى الشدة وسفك الدماء .

وقد كان لمدينة طليطلة عاصمة القوط السابقة شأن خاص لشهرتها القديمة ، وكان الإسبانيون يعتبرونها من الناحية السياسية والناحية الدينية أكبر مدن أسبانيا شأناً ؛ وكان أهلها معروفين بالإقدام وشدة الطموح والميل إلى الحرية ، وكانت طاعتهم ملتاثة ، وكان بها غربيب الشاعر ، وكان يثير حميتهم بشعره ويرد عنهم الكيد بدهائه . ولم يحاول الحكم استرداد طليطلة وإرغامها على الطاعة فى حياة غربيب ، لاعتقاده أن ذلك سيكلفه مجهوداً شاقاً ، فلما مات غربيب استدعى الحكم عمروس من مدينة وشقة — وكان من المولدين — وأفضى إليه بمقاصده

وخططه فى الاستيلاء على طليطلة ، وقال له «إنى لم يقم لى أمل فى الانتصاف من أهل طليطلة إلا على يدك» وكان عمروس من ذوى المطامع الذين لا يقيمون وزناً للدوافع الاخلاقية ، فوافقه على ذلك وولاه طليطلة ، وكتب إلى أهلها كتاباً يخدعهم عن عقولهم ويقول «إنى اخترت لكم رجلا من أهلكم وأعفيتكم من موالينا» وحد لعمروس حدوداً رجا بها بلوغ أمله ، فكان مما حد له أنه قال «إذا أنس أهل طليطلة إليك وأحلوك محل واحد منهم بإظهارك لهم فى الباطن أنهم أحب إليك من بنى أمية ، ومن كل من عرفهم ، وأنك على كراهة لجميعهم ، فعليك أن تقول لهم إنى رأيت هذا الشر الحادث بينكم وبين عمال السلطان إنما هو بمداخلة الحشم لكم ولبنيكم ونسائكم ، فأرى أن أبنى قصبة فى جانب من المدينة يسكنها الحشم فيكونوا بمعزل عنكم وتسلموا من شرهم ، فأجابوا إلى أن تكون القصبة فى وسط المدينة ، فبنى قصراً واستخرج ترابه من حفرة فى وسطه . فلما تم القصر ورحل إليه وسكنه أعلم الحكم بذلك ، فعهد الحكم إلى بعض قواده فى الثغر بأن يخاطب بحركة العدو ويطلب النجدة . فلما عمل برأيه استنفر الحكم الناس بقرطبة وغيرها وأخرج ابنه عبد الرحمن ، وهو حينئذ ابن أربع عشرة سنة وأخرج معه ثلاثة من الوزراء ، وكتب الحكم كتاباً وأوصى حامله أن يدفعه إلى الوزراء عند اجتماعهم بعمروس ، فلما صار العسكر على مقربة من طليطلة تلقاهم الخبر بانصراف العدو ، فقال عمروس لأهل طليطلة إنه سيخرج للحفاوة بالأمير الصغير ، وأشار عليهم بالخروج معه ، فلبوا طلبه ، وأحسن الأمير لقاءهم وبسط لهم من حسن رأيه ما أنسوا إليه ، ثم خلا عمروس بالوزراء ، وجاء حامل الكتاب فدفعه إليهم ، فإذا فيه أن يشير عمروس على أهل طليطلة بدعوة ولى العهد إلى مدينتهم ليكونوا من خواصه ، وأن يظهر الأمير التمنع والتردد فى دخول طليطلة حتى يعزموا عليه فإذا عزموا انقاد لهم ودخل

المدينة وأقام فى القصر ، فسأله القوم ذلك فتغاضى ، ولكنهم ألحوا عليه والتمسوا منه زيارة المدينة ، فرحل إليها ودخلها وأقام فى قصر الحاكم ، وكان له بابان ، ثم دعا وجوه أهل طليطلة إلى وليمة كبيرة فحضروا وأمروا بالدخول من باب ، وحرفت دوابهم إلى الباب الثانى ليخرجوا منه ، ولم يسمح لهم بالدخول جماعات ، بل كانوا يدخلون أفراداً ، ووقف السيافون على شفير الحفرة فى داخل القصر ، فكان كل من دخل تضرب رقبته ، واستمرت هذه المجزرة ساعات ، ومن الصعب معرفة عدد من قتلوا ، وأتى الباب الذى منه الدخول أحد سكان طليطلة فلم يلمح أحداً خارجاً وقد تعالى النهار ، فقال لمن حول الباب : «أين أصحابنا الذين دخلوا من غدوة ؟» فقيل له إنهم يخرجون من الباب الثانى فقال : «إنى لم ألق أحداً منهم منقلباً» ثم رفع بصره فنظر إلى بخار الدم فقال : «يا أهل طليطلة السيف والله يعمل فيكم ، هذا بخار الدم لا دخان المطبخ» فكان قوله سبب افتراق الناس وبقاء من بقى منهم .

فقدت المدينة فى تلك الوقعة قادة ثورتها ، وزهرة سكانها ، وذوى الثروة والنفوذ فيها ، فاستكانت للضربة القاضية ، واستقامت طاعة أهلها ، ولم يظهر بينهم من يرفع علم الثورة ، ويثأر لدماء قتلى الحفرة .

فصول من حياة الحكم أمير الأندلس

(٢)

وقعة الربض – الحكم والفقيه طالوت

كان لمذبحة وقعة الحفرة تأثير بليغ فى نفوس مولدى قرطبة وفقهائها ، فظلوا معتصمين بالهدوء سبع سنوات عاودتهم فى نهايتها نزعة التمرد ، وبدأ التذمر يساور الفقهاء ويجيش بنفوس المولدين وكان كل منهما يشحذ ضراوة الآخر ، ويوغر صدره ويثير نقمته ، ولم يخف ذلك على الأمير الحكم فحاول أن يوقع فى روعهم أن الثورة غير مجدية ، فأعاد تحصين المدينة وزاد فى عدد حرسه ، وجمع الأسلحة والعدد ، فلم يكفكف ذلك من نزواتهم ولم يردهم إلى التبصر والنظر فى العواقب ، وقد كان ابن عذارى صريحاً فى لومهم على سلوكهم هذا المسلك الوعر إذ أيد بقوة رأى القائلين بأن أصل هذا الهيج كان الأشر والبطر ، إذ لم تكن ثمة ضرورة من إجحاف فى مال ولا انتهاك لحرمة ولا تعسف فى مملكة ، ولم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سخرة ولا شىء يكون سبباً لخروجهم على السلطان . وظل مثيرو الفتنة يعملون ويحرضون ، وفضلا عن ذلك فقد عاد يحيى ابن يحيى الفقيه المعروف إلى المدينة ، وتولى قيادة الجماهير وإثارتهم بخطبة الحماسية ، وتفاقمت الحالة ، واستوفت الثورة عناصرها ، وحدثت مسألة فردية كما يحدث عادة فى بدء الكثير من الثورات أشعلت نيران الثورة وأطلقتها من

عقالها ، وذلك أن أحد جنود الحكم اعتدى على أحد الصياقلة بالقتل عقب مشادة قامت بينهما ، وأثار ذلك ثائرة القوم ، فانتشرت الثورة انتشار النار فى الحطب الجزل ، وسرعان ما تسايلت على القصر جموع الثائرين الزاخرة ، وقد تسلحوا بكل ما وقع فى أيديهم ، ولما شاهد الحكم هذه الجموع الغفيرة المتدفقة كثوائر الأمواج ، ظن أنه قد يستطيع صد هجومهم وتمزيق شملهم بهجمة قوية من فرسانه ، ولكنه لم يلبث أن خاب ظنه وأخطأ تقديره . فقد استطاعت هذه الجموع التى استطارتها الحماسة واستفزها التعصب والغضب أن تصمد لهجوم الفرسان وترغمهم على الارتداد والتقهقر .

وتحرج الموقف ، وكان القصر محصناً ، ولكن لم يكن من المنتظر أن يثبت أمام هجمات هذه الجموع المتزاخرة ، وأخذ اليأس يستولى على نفوس المدافعين عن القصر مع علمهم أن الثائرين لا يرحمونهم ولا يبقون عليهم ، وبدأ اليأس يدب إلى نفس الحكم ، ولكنه ظل مع ذلك محتفظاً برزانته ورباطة جأشه ، ودعا غلامه « بزنت » وقال له : « اذهب إلى فلانة – إحدى كرائمه – وقل لها تعطيك قارورة الغالية » ، فظن الخادم أنه أساء الفهم وتلكأ وجمد مكانه ، فأعاد ذلك عليه ، فتعجب الغلام واجترأ على أن يقول : « أهذا يوم طيب يا سيدى ؟ » فانتهره .

وقال : « هذا يوم وطنت نفسى فيه على الموت أو الظفر بعدوى ، فأردت أن يعرف رأس الحكم من بين رءوس من يقتل معه » . ولما أتم التعطر بالغالية أمره باستدعاء جدير ، وكان حارس السجن الذى سجن فيه الحكم بعض الفقهاء ، وكان قد تركهم فى السجن وعفّ عن قتلهم ، ولكن الآن وقد ثاروا به وعملوا على قتله فقد صمم على قتلهم ، فلما دخل عليه جدير قال له الحكم : « إذا أظلم الليل فأخرج هؤلاء المشايخ واضرب رقابهم » وقدر جدير أن القصر قد يقع فى يد

الثائرين وأنه فى هذه الحالة سيحاسب حسابا عسيراً على توليه قتل هؤلاء الفقهاء فقال للحكم : «والله يا مولاى إنى لأكره لك ولنفسى أن أكون غداً أنا وأنت فى زاوية من زوايا جهنم تهر إلىّ وأهر إليك ، ولا تنفعنى ولا أنفعك» فانتهره الحكم ، وعزم عليه فى إنفاذ ذلك فلم يجبه ، فأمر بإخراجه وإدخال ابن نادر بواب السجن فصدع بأمر الحكم .

ثم نزل الحكم من شرفة القصر شاكى السلاح ، وعرض جنده وشجعهم بكلمات قوية مناسبة ، ثم استدعى ابن عمه عبيد الله وكان شجاعاً نجداً ، وأمره أن يقود جماعة منتخبة من الجند ، وأن يشق طريقه بين الجموع ويشعل النار فى حى الربض الذى كان يقيم فيه أكثر الثائرين ، ورجح الحكم أن سكان ذلك الحى عندما يرون النيران تشتعل فى حيهم يسرعون إلى إطفائها واستنقاذ أولادهم وأزواجهم ، فيهاجم عبيد الله من الأمام وينقض عليهم الحكم ورجاله من الخلف ، ونجحت هذه الخطة ، وتفرق القوم كما قدر الحكم لما رأوا النيران المشتعلة وأسرعوا لإنقاذ أولادهم ، واستولى عليهم بعد ذلك الفزع ، ووقع فى صفوفهم الاضطراب لما رأوا الهجوم من الأمام ومن الخلف ، وتناولتهم سيوف رجال الحكم بالتقتيل ، وعبثاً ألقوا أسلحتهم والتمسوا الصفح والغفران من رجال الحكم ، فقد كان الكثيرون من جنده لا يعرفون العربية ، ولم ينج من سيوفهم سوى ثلاثمائة من ذوى المكانة .

وأشار بعض الوزراء على الحكم بألا يقبل الطاعة من الذين نجوا ، وأشار فريق آخر من الوزراء بقبول ذلك ، وقال إن منهم المسىء والمحسن ، فأخذ الحكم برأى من أشار بالصفح وأذن لهم فى الخروج من قرطبة ، وأمر الحكم بإخلاء حى الربض الذى كان يقيم فيه الثائرون ، وهدم ديارهم ومساجدهم

وحرقها ، ونفى الباقين من سكانه عن الأندلس ليأمن شرهم وعودتهم إلى العصيان .

وكان فى جملة من أجلب عليه فى الربض رجل من الفقهاء اسمه طالوت ابن عبد الغفار المعافرى ، وهو أحد من روى عن مالك وتفقه على أصحابه ، وكان جليل القدر فى الفقهاء ، ومن أشد الناس تحريضاً على الحكم ، فلما وقعت الواقعة وظهر الحكم على الربض وأمر بتغريب من بقى منهم كان ممن أمر الحكم بتغريبهم طالوت الفقيه ، فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ، فاستخفى فى دار رجل يهودى سنة كاملة ، حتى سكنت الأحوال وذهبت الثائرة وكان اليهودى فى كل ذلك يكرمه أبلغ الكرامة ويعظمه أشد التعظيم ، فلما مضت السنة طال على الفقيه الاختفاء ، فاستدعى اليهودى وشكره على إحسانه إليه وقال له : «قد عزمت غداً على الخروج وقصد دار أبى البسام الوزير–وكان بينه وبين أبى البسام وصلة–لأنه قرأ على ولى عليه حق التعليم ، وقد بلغنى أن له جاهاً عند هذا الرجل ، فعسى أن يشفع لى عنده فيؤمننى ويدعنى فى بلدى» فقال له اليهودى : «يا مولاى لا تفعل فما آمنهم عليك» . وجعل يحلف له بكل يمين يعتقدها أنه لو أقام عنده بقية عمره ما أملّه ذلك ولا ثقل عليه ، فأبى طالوت إلا الخروج ، فخلى اليهود بينه وبين ذلك ، فخرج حتى أتى دار أبى البسام بغلس ، فاستأذن عليه فأذن له ، فلما دخل عليه رحب به وأدنى مجلسه وسأله أين كان فى هذه المدة ، فقص عليه قصته مع اليهودى ، ثم قال له : «أشفع لى عند هذا الرجل حتى يؤمننى فى نفسى ويمن علىّ بتركى فى بلدى» .

فآمنه أبو البسام وسكّنه وقال له : «الأمير أبقاه الله نادم على ما كان منه» .

وبات عنده ، فلما أصبح قصد أبو البسام القصر بعد أن وكل على طالوت من يحرسه ، فلما وصل إلى الحكم ابتسم ابتسامة ماكرة وقال : «كيف رأيك أيها

الأمير فى كبش سمين على مزودة منذ سنة ؟ .

فقال له الحكم : «اللحم المشبع ثقيل ، واللحم الصحراوى أخف وأعذب » .

فقال له أبوه البسام : « غير هذا أريد ، طالوت عندى » .

فقال له الحكم : «وأين ظفرت به ؟ » .

فقال أبو البسام : «أتى لطفى عليه» .

فأمر الحكم بإحضاره ، ووضع له كرسى ، وجيء بطالوت يزعج إزعاجا شديداً وقد ذهب به الفزع كل مذهب . فلما وقعت عليه عين الحكم لم يبد عليه الغضب ، وقال له فى لهجة العتاب الرفيق :

يا طالوت . أخبرنى لو أن أباك أو ابنك مالك هذا القصر أكان يزيدك فى البر والإكرام على ما كنت أفعله بك ؟ هل أوردت قط علىّ حاجة لنفسك أو لغيرك إلا سارعت إلى إسعافك ؟ ألم أعدك فى علتك مرات ؟ ألم تتوف زوجتك فقصدتك إلى بابك ومشيت فى جنازتها راجلا من الربض ، ثم انصرفت معك راجلا حتى أدخلتك منزلك ؟ فماذا بلغ بك وهذا لى عندك أن لم ترض إلا بسفك دمى ، وهتك سترى ، وإباحة حرمتى ؟» .

أعادت كلمات الحكم الثقة إلى نفس طالوت ، وجعلته يطمئن على حياته ، فعاودته صرامته واغتراره بوجهة نظره ، وأبت له كبرياؤه أن يعترف بأنه أخطأ فى حق الأمير ، فأجاب : «ما أجد لنفسى فى هذا الوقت مقالا خيراً لى من الصدق ، أبغضك الله فلم ينفعك عندى كل ما صنعته . » .

أدرك الحكم ما تضمنه كلام طالوت من التحدى الخفى ، فبدأ يغتلى غضبه ، ولكن سرعان ما غالب نفسه ، واستعاد هدوءه ، فقال لطالوت فى رفق : «والله لقد بعثت فيك وما فى الأرض عقاب إلا وقد مثلت بين يدى

لأوقعه بك ، فأنا أعلمك أن الذى أبغضتنى له قد صرفنى عنك ، فانصرف فى حفظ الله آمناً ، والله لاتركت برك وما كنت عليه فى جانبك طول حياتى إن شاء الله ، فليت الذى كان لم يكن . » .

لم يحرك هذا الكلام أريحية طالوت ، ولم يلن من صلابة نفسه ، وكان رده عليه الموجز المتجهم قوله : « لو لم يكن كان خيراً لك » .

لم يزايل الحكم حلمه ورفقه ، وتظاهر بأنه لم يسمع هذا الكلام ، وقال لطالوت : « أين ظفر بك أبو البسام ؟ » .

فأجاب طالوت : « والله ما ظفر بى ، أنا أظفرته بنفسى وقصدته لوصلة كانت بينى وبينه . »

فقال له الحكم : « فأين كنت فى عامك هذا ؟ » .

فقال طالوت : « كنت عند رجل من اليهود . » .

فالتفت الحكم إلى أبى البسام ، وقد بان فى وجهه الغضب وقال له : « يا أبا البسام ، رجل من اليهود حفظ فيه محله من الدين والعلم ، وخاطر بنفسه وأهله وماله وولده معى ، وأردت أن تنشبنى فيما أنا نادم عليه ؟ أخرج عنى ، والله لا رأيت لك وجها أبداً » .

وأمر برفع فراشه وعزله ، وبقى طالوت مبروراً محفوظاً على ما شرط له إلى أن توفى فحضر جنازته .

كان كل من الحكم وطالوت يعتقد أنه على الحق ، وقد أظهر لنا الحديث الذى دار بينهما الفرق بين تعصب الفقيه المتشدد الذى ينظر إلى الحق من ناحية واحدة ، وبين سجاحة الأمير السمح الرحب الفكر الذى ينظر إلى الحق من زوايا مختلفة ، وقد عبر الأمير الحكم عن اعتقاده بأنه كان محقاً فى قتال أهل الربض تعبيراً شعرياً فى هذه الأبيات البليغة .

رأيت صدوع الأرض بالسيف رافعـاً
وقدماً لأمت الشعب منذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة
أبـادرهـا مستنضى السيف دارعـا
تنبيك أنى لم أكن فى قتالهم
بوان وقد ما كنت بالسيف قارعا
حميت ذمارى وانتهكت ذمارهم
ومن لا يحامى ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينـا سجـال حروبنـا
سقيتهمو سمًّا من الموت ناقعا
وهل زدت إذ وفيتهم صاع قرضهم
فـذاقوا منـايـا قـدرت ومصارعـا
فهذى بلادى إننى قد تركتها
مهـاداً ولم أترك عليها منـازعـا

خاتمة بطل وقعة الزاب

(١)

فى أوائل السنة الهجرية اثنتين وثلاثين ومائة كان تواتر الحوادث فى الشرق الأدنى ينذر بقرب وقوع انقلاب سياسى خطير يؤثر تأثيراً بعيداً المدى فى مصاير الأمم الإسلامية وسير التاريخ العالمى . وكأنما كانت تلك الأرض التى شاهدت ميلاد أكثر الأديان المعروفة ، ونشأة الدول الشرقية القديمة والأسر الكبيرة ، والتى مرت بها جيوش كبار الفاتحين والغزاة ، تتهيأ لاستقبال أسرة جديدة ودولة ناشئة ، ولم يكن ذلك غريباً ، فهذه الرقعة من الكرة الأرضية لم تعرف الاستقرار ولا الدوام ، وطالما شاهدت اصطراع المبادئ والمذاهب ، وكفاح الدول والدويلات . وكانت الجيوش الخراسانية الظافرة قد بلغت مدينة شهزور فى الشمال واقتحمتها وتقدمت منها إلى نواحى الموصل ، واستولت على الكوفة فى الجنوب وجاوزتها متجهة إلى مدينة واسط . وروّعت هذه الأنباء الخليفة الأموى مروان بن محمد ، وأقضّت مضجعه ، فأخذ ينفض عن نفسه غبار الخمول الذى استولى عليه أخيراً بعد أن كاد ييأس من تلافى اختلال الأمور ورتق الفتوق وصلاح الأحوال . وشرع يجمع جموعه ويعد ما استطاع من قوة وهو مقيم فى مدينة حران التى كان يألفها ويطمئن إلى الإقامة بها ، ويؤثرها على غيرها من عواصم ملكه . وكانت الرسل تختلف بين السياسى الداهية والقائد الموهوب أبى مسلم الخراسانى ، وهو مقيم فى مرو ، وبين زعيم العباسيين الإمام إبراهيم بن

محمد المقيم فى قرية الحميمة . وكان مروان يعرف شيئاً عن العلاقة الغامضة بين العباسيين وبين تلك الحركة الخطيرة والثورة العنيفة التى بدأت فى خراسان . وأخذت تنتقص أطراف ملكه وتقوض دولته ، ولكنه كان ينقصه البرهان القاطع والحجة الدامغة . وفى ثورة من ثورات الغضب ونوبة من نوبات اليأس أمر مروان أصحابه بأن يشددوا الرقابة على الطريق بين خراسان والحميمة ليجدوا الوثيقة المنشودة التى تسوغ له اتهام الزعيم العباسى . وأثمرت المراقبة ثمرتها المرجوة ، فبعد أيام معدودات من هذا التشديد مثل بين يديه بعض أصحابه ومعهم رسول يحمل رسالة من الإمام إبراهيم إلى أبى مسلم يوصيه فيها بالجد فى أمره ، ويرسم له الحدود التى يتبعها ، والخطط التى يأخذ نفســه بتنفيذها . وكانت هذه الرسالة مكتوبة بخط إبراهيم وممهورة بتوقيعه ، ولما تأمل مروان كتاب إبراهيم سرّ به ، على ما كان يحتضره فى هذه الأيام العصيبة من هموم ، وما كان يهجس بنفسه من الهواجس، لأنه وجد فيه الحجة التى كان يلتمسها من زمن للقبض على إبراهيم وإرغامه والخلاص منه . وقد كان الأمويون يجدون متعة ومسلاة فى إذلال تلك الأسر الكبيرة التى كانت تنافسهم قديماً فى الرياسة ، وتساميهم فى المكانة ، وكانوا يرحبون بالفرصة التى تتيح لهم ذلك . فلم يتردد مروان فى إصدار أمره إلى عامل دمشق بأن يكتب إلى عامل البلقاء بالتوجيه إلى الحميمة والقبض على إبراهيم وإشخاصه إلى حران ليتولى مروان بنفسه التحقيق معه ، ومواجهته بتهمة الخيانة الكبرى . ولما توجه العامل إلى الحميمة ، كان لهذه المفاجأة وقع أليم فى نفس إبراهيم وأهل بيته وأبناء عمومته ، ولكن العباسيين كانوا قد تعودوا إخفاء عواطفهم وكتمان أمورهم ، فلم يلبث إبراهيم أن استفاق من ذهوله ، وثاب إليه صفاء تفكيره ، وأدرك الموقف على حقيقته ، ولم يكن يتوقع النجاة من قبضة مروان، ولذا نعى نفسه إلى أهل بيته، وأمرهم بالمسير إلى

الكوفة مع أخيه أبى العباس ، وبالسمع والطاعة له وأوصى إلى أبى العباس وجعله الخليفة من بعده . وكانت الحالة تستلزم المبادرة إلى الرحيل ، فقد أصبح بقاؤهم فى الحميمة محفوفاً بالأخطار ، وخرجوا فى ركب وهم لا يتجاوز عددهم أربعة عشر رجلا ، وكان أكثرهم من الرجال ذوى الكفايات الذين قدر لهم أن تبقى أسماؤهم فى الذاكرة ، وتمتلئ بأخبارهم السير. وكان فى طليعة رجالات هذا الركب رجلان مديدا القامة كلاهما قد طوى برد الشباب وبلغ السابعة والثلاثين من عمره ، وكان أحدهما عمًّا للآخر ، وكان العم أقنى حديد البصر أصفر الديباجة ، يبدو فى حركاته النشاط والتوقد وبعد الهمة وعدم التردد ، وتلمح فى عينيه بريق القسوة ، وكان الثانى أسمر رقيق السمرة تشع عيناه ذكاء ودهاء ، وتبدو عليه أناة المفكرين ووقار العلماء ، وتستبين فى حركاته مظاهر اليقظة التامة مع التحفظ الشديد . وكان اسم الأول عبد الله بن على ، واسم الثانى عبد الله بن محمد ، وكان يكنى بأبى جعفر ، ويروى لنا المسعودى هيرودوت التاريخ الإسلامى — كما يرى العلامة روبرت فلنت ، أنهم وهم فى طريقهم لقيتهم أعرابية على بعض مياه العرب ، وقد تقدم أبو العباس وأخوه أبو جعفر وعمه عبد الله فيمن كان معهم إلى الماء ، فقالت الأعرابية : «تالله ما رأيت وجوهاً مثل هذه ما بين خليفة وخليفة وخارجى» فاسترعى قولها التفات أبى جعفر ، فقال لها «كيف قلت؟» فقالت : والله ليبلغها هذا ، وأشارت إلى أبى العباس ولتخلفه أنت وليخرجن عليك هذا ، وأشارت إلى عبد الله بن على .

وسواء كانت هذه الرواية من القصص الموضوعة التى يقصد بها المسعودى إلى الإغراب والتشويق ، أكثر مما يقصد إلى تحرى الحق ، أو كانت هذه الأعرابية قد استشفت بصفاء فطرتها وصادق حسها بعض حجب الغيب المستور ، فإن الواقع أن هذين الرجلين ، على ما كان بينهما من أواصر القربى ،

لم يكن كل منهما يألف صاحبه أو يستريح إليه ، فقد كان كلاهما شديد الأثرة بعيد المطامع كثير الاعتداد بنفسه ، وكان عبد الله بن على مقداما إلى حد التهور والاستهانة بالعواقب ، أما أبو جعفر فكان شديد الحذر فإذا أقدم على شيء كان على بينة من أمره ، وقد نشآ معا فى الحميمة ، وكان يسليهما فى هذا المنفى الموحش ما يعتلج فى نفسيهما من الآمال والأحلام فتزدهر جدوبته وتهون وحشته ، وكان العباسيون يطلبون شيئين ، وهما النفوذ والمال ، وكان فى أبى جعفر إلى كفايته العملية طبيعة الباحث المنقب ، ولذا أولع بدراسة الفقه وصحبة العلماء ، أما عبد الله .بن على فكانت نزعته عملية محضة . ولما ثار بالأمويين عبد الله بن معاوية العلوى وتغلب على فارس وكورها ، وامتد سلطانه وانتشر أمره ، وأتاه الناس من كل صوب وجبى المال وبعث العمال ، أتاه أبو جعفر وأتاه عبد الله بن على ، ولكن عبد الله بن معاوية لم يكن الرجل الذى يستطيع أن يؤسس ملكا أو يقيم دعائم دولة ، فقد كان مغلوباً على أمره منقاداً لشهواته ، ولذا لم يلبث أن أفل طالعه ، وتبددت جموعه ، ومضى هارباً إلى خراسان وأسر عدد كبير من رجاله وفيهم عبد الله بن على ، ولما مثل بين يدى قائد الجيش الأموى — ابن ضبارة — قال لعبد الله : «ما جاء بك إلى عبد الله بن معاوية وقد عرفت خلافه لأمير المؤمنين ؟ » .

فأجابه عبد الله : «كان علىّ دين فأتيته» وأدرك عبد الله أن هذا الجواب لم يقنع القائد الأموى ، فأطلق لسانه فى ابن معاوية ، وبالغ فى تسفيه أرائه ، والنيل من أخلاقه ، وأعجبت هذه النغمة ابن ضبارة كما قدر عبد الله فأرسله إلى حاكم العراق ابن هبيرة ليعرف منه حالة ابن معاوية . أما أبو جعفر فإنه لم يخرج من مأزق اتصاله بابن معاوية بهذه السهولة ، وناله من وراء ذلك الضرب والسجن .

وظل ركب العباسيين فى سيره يطوى مراحل صحراء بادية الشام فدفداً بعد فدفد ، يحدوه الأمل ويستحثه الخوف ، ولما انتهى الركب إلى تلك القرية الواقعة فى منتصف الطريق–المعروفة بدومة الجندل–التقى بهم داود بن على وابنه موسى ، وكانا عائدين من العراق أو من غيرها ، فعجب داود لهذا اللقاء على غير ميعاد فقال لهم : «ما تريدون وما قصتكم ؟» .

فتولى الحديث معه أبو العباس وقص عليه قصتهم ، وذكر له أنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ويظهروا أمرهم ، فاستكثر داود هذه الجرأة وعدها مغامرة خطيرة ، وقال لابن أخيه .

«يا أبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى مروان ، مروان بن محمد مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة ، وشيخ العرب يزيد بن عمر بن هبيرة بالعراق فى حلبة العرب ؟» .

فسمع من جانب أبى العباس هذا الجواب الموجز الجامع : «من أحب الحياة ذل» وسمت به هذه الكلمة فوق مرتبة الخوف والتردد وحساب المكسب والخسارة ، فالتفت إلى ابنه وقال له : «صدق ابن عمك ، فارجع بنا معه نعش أعزاء أو نمت كراماً» .

واتجهوا بعد ذلك إلى ناحية الشمال الشرقى ضاربين فيما بين بادية العراق وبادية الجزيرة آخذين فى طريق الكوفة ولما شارفوا الكوفة وجه أبو العباس رسولا إلى أبى سلمة كبير دعاة العباسيين بها ، فأنكر مقدمهم وقال للرسول : «خاطروا بأنفسهم وعجلوا فليقيموا بقصر مقاتل–وهو على مرحلتين من الكوفة–حتى ننظر فى أمرنا» فعاد إليه الرسول وكتبوا إليه «إنّا فى برية ولا نأمن قصد جيوش الشام إيانا لأنهم بهيت على ثلاث مراحل منا» وسألوه الإذن لهم فى الدخول إلى الكوفة ليتحرزوا بها ، فأذن لهم على كره منه ، وكتم أمرهم نحوا من شهرين من جميع القواد والشيعة . وأرجح أن أبا سلمة لطول إقامته فى العراق وأكثر أهلها شيعة

على تأثر بمذهبهم وارتأى رأيهم فى أن الخلافة حق من حقوق أولاد على ، فلما صح عنده موت الإمام إبراهيم حاول نقل الأمر إلى العلويين ، وكاتب ثلاثة من أعيانهم ، ولكنهم رفضوا دعوته وآثروا السلامة ، وارتاب أهل خراسان بأبى سلمة ، وساءهم أن يعظم نفوذه ويستأثر بالأمر ، وعلموا بعد ذلك بوجود أبى العباس فى الكوفة ، فأحبطوا ما أراده أبو سلمة وذهبوا إلى الكوفة وقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة . ولما علم أبو سلمة بذلك اضطر إلى المجىء بنفسه وسلم على أبى العباس بالخلافة . وظهر فى أعقاب ذلك أبو العباس فى الكوفة وألقى خطبته المشهورة وأخذت له البيعة ، ثم خرج من الكوفة وعسكر فى حمام أعين وفى عسكر أبى سلمة واستخلف على الكوفة عمه داود .

كان الآن العمل المقدم والخطوة الحاسمة هى التغلب على مروان ، وهزيمته وتمزيق جيشه ، فدعا أبو العباس أهل بيته وعرض عليهم قيادة الجيش الذى سيتولى محاربة مروان ، ورغبة منه فى تشجيعهم قطع على نفسه عهداً بأن يجعل ولاية العهد لمن يهزم جموع مروان . فتقدم عبد الله بما عرف عنه من إقدام واستهانة بالأخطار ، والحقيقة أن عبد الله كان يحاول أن يقتنص كل فرصة تمكنه من تحقيق ما يختلج بنفسه من المطامع ، وللحروب جاذبية خاصة لأمثال هذا الرجل المغامر المقامر ، فهى قد ترفع أحيانا إلى درجة البطولة . وعرف عبدالله كيف يستثير حمية جنده ويبتعث شجاعتهم ، ويذكر لهم سوء سياسة الأمويين بلهجة مؤثرة وطرائق مسرحية ، فهزموا جيش مروان هزيمة منكرة على مقربة من مدينة أربيل التى هزم عندها الإسكندر المقدونى جموع الفرس . وكان جيش مروان يفوق جيش عبد الله فى العدد والعدة ، ولكن عبد الله عرف كيف يقوى روح جيشه المعنوية وكيف يعمل بنصائح القادة المحنكين من رجاله . وقد حارب مروان ومؤخرة جيشه خلفها نهر الزاب الأعلى فلما وقعت الهزيمة كان عدد

الغرق فى النهر من جيشه اللجب أكثر من عدد القتلى الذين سقطوا فى الميدان ، ولم يمكنه ذلك من جمع فلوله ليشتبك مع جيش عبد الله فى معركة أخرى .
على أن هزيمة مروان وتحطيم قوته لم تكن خاتمة متاعب العباسيين ، فقد كان على عبد الله أن يضطلع بعد ذلك بعبء إخضاع سوريا وهى حصن الدولة الأموية ، واقتحام مدنها والقضاء على نفوذ بنى أمية فيها . ولم يكن ذلك بالأمر الهين ولا بالمطلب السهل ، فقد كانت قوة بنى أمية متركزة فى سوريا ، وكان لا يزال بها كثير من زعماء العشائر وشجعان القواد الذين يميلون إلى بنى أمية ويدينون لهم بالوفاء. وقد برهن عبد الله على أنه رجل مثل هذا الموقف، وقد كان عبد الله بطبيعته رجلا فتاكاً رهيباً لا يعرف هاتف الضمير ولا وسوسة العاطفة ، وكان من هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين يتخذهم القدر آلات صماء لتنفيذ مآربه وتحقيق غاياته ، ويشعر الإنسان عند التفكير فى أعمالهم وإقدامهم على الكبائر أنهم مدفوعون بقوى كونية مجهولة ودوافع خفية تجعلهم ينطلقون من كل قيد ويقطعون كل علاقة ، وقد أسرف عبد الله فى القتل وسفك الدماء حتى صار أكثر جدارة بهذا اللقب البغيض « السفاح » من ابن أخيه اللين المستضعف الخليفة أبى العباس . ولكن هذه القسوة وطدت ملك أسرته ، وجعلت الخليفة العباسى الأول يأمن جانب الشام ، ولم يكن ذلك بالأمر القليل الأهمية والدولة فى طالعة أمرها والذين يبغون بها السوء كثيرون . وعرف له أبو العباس فضله وحسن بلائه فأقره على ولاية الشام . على أن أبا العباس حاول بعد ذلك أن يتحلل من العهد الذى قطعه على نفسه بأن يجعل المتغلب على مروان ولى عهده . واستشار فى ذلك أصحابه وخاصته فنصحوا له بألا يخرج الخلافة من ولد أبيه إلى ولد عمه . وفى السنة التى توفى فيها أبو العباس عقد لأخيه أبى جعفر الخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ، ومن بعده إلى عيسى بن موسى وكتب العهد بذلك وصيره فى

ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى .

وفى نفس السنة قدم أبو مسلم العراق من خراسان على أبى العباس . ولما دنا من الأنبار أمر أبو العباس الناس يتلقونه ، وأقبل إلى أبى العباس فدخل عليه فأعظمه وأكرمه ، ثم استأذن أبا العباس فى الحج فقال له : «لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملتك على الموسم» وكان ما بين أبى جعفر وأبى مسلم متباعداً ، وكان أبو العباس قد تعمد استدعاء أبى جعفر من الجزيرة وأسند إليه إمارة الحج ليتجنب إسنادها إلى أبى مسلم خشية ازدياد نفوذه وتسامى مكانته . وقدم عليه عمه عبد الله فعقد له أبو العباس على الصائفة فى أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل ، وسار عبد الله على رأس هذا الجيش الكثيف حتى بلغ الدروب ، وبينما كان أبو جعفر وأبو مسلم عائدين من الحج والمنافسة بينهما فى الطريق على أشدها ، وكان عبد الله يُغِذ السير ليتوغل فى الدروب أصيب الخليفة أبو العباس بالجدرى ، ولم يرحم هذا المرض الوبيل وجهه الحسن ولا شبابه الناضر الغض ، فمات لاثنتى عشرة ليلة مضت من ذى الحجة بالأنبار ، وكانت وفاته إيذاناً باشتداد الصراع بين الرجال الثلاثة الذين كانوا دعامة ملكه وفحول دولته ، وهم عبد الله بن على والى الشام ، وأبو جعفر والى الجزيرة ، وأبو مسلم والى خراسان ، وقد كانت المنافسة بينهم موجودة من قبل ولكنها كانت خفية المدب ، ناعمة الملمس .

خاتمة بطل وقعة الزاب

(٢)

نعى الخليفة أبو العباس إلى أخيه أبى جعفر وهو عائد من موسم الحج مع أبى مسلم الخراسانى . وكان قد تقدم على أبى مسلم فى الطريق ، فلما تلقى كتاب النعى توقف عن المسير واستقدم أبا مسلم ، فأقبل أبو مسلم حتى قدم عليه ، فلما جلس ألقى إليه الكتاب ، فقرأه وبكى واسترجع . وكان أبو جعفر رجلاً ركيناً مجرباً لا يطير بلبه بريق النجاح ، ولا يخدعه إقبال الحظ ، فلم يصرفه سروره بالخلافة عن التفكير فيما عسى أن يكون موقف عمه عبد الله منه وهو على رأس جيش كامل الأهبة موفور السلاح ، وأخوه صالح وال على مصر ، وأخوه سليمان وال على البصرة . وكان يعرف طموح عبد الله وإقدامه وجزالة رأيه وقوة شكيمته ، وقد كان المنصور من قبل الخلافة محبذاً للفتك بأبى مسلم لسوء اعتقاده فيه ، وتخوفه على مكانة الأسرة من تفاقم سلطانه ، فلماذا لا يستغله قبل ذلك فى محاربة عبد الله إذا حدثته نفسه بالامتناع عن البيعة وادعاء الخلافة لنفسه ؟ .

أمثال هذه الأفكار كانت تدور بنفس أبى جعفر عند لقائه أبا مسلم . وقد أفضى إلى أبى مسلم بمخاوفه من عمه وتظاهر بالجزع حتى أخذ أبو مسلم يهون عليه الأمر ، وبايع له أبو مسلم ، وبايع الناس ، وأقبلا حتى قدما الكوفة .

وبعث عيسى بن موسى رسولاً بالبيعة إلى عبد الله بن على ، فحدث ما كان منتظراً ، فقد امتنع عبد الله عن البيعة ، وأمر منادياً فنادى الصلاة جامعة ،

فاجتمع إليه القواد والجند ، فقرأ الكتاب بوفاة أبى العباس ، ودعا الناس إلى نفسه ، وأخبرهم أن أبا العباس حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان ، دعا بنى أبيه فأرادهم على المسير إلى مروان وقال : «من انتدب منكم فسار إليه فهو ولى عهدى» فلم ينتدب له غير عبد الله ، وإنه خرج من عنده وقتل من قتل على هذا الأساس ، وشهد بذلك عدة من قواد أهل خراسان .

ورحل أبو جعفر عن الكوفة ، وشخص إلى الأنبار ، وأقام بها وجمع إليه أطرافه ، ولما خرج عبد الله على أبى جعفر استدعى أبا مسلم وقال له «ليس لعبد الله غيرى أو غيرك» ، وكان أبو مسلم يتوقع خروج عبد الله ، وكان قد انتوى من قبل أن يقف على الحياد من هذا الخلاف ويقدم الطاعة لمن يظفر منهما بالآخر ، فلما استشاره المنصور فى أمر عبد الله قال له «يا أمير المؤمنين ، إن أمر عبد الله بالشام أقل وأذل ، وأمر خراسان أمر يجل خطبه» واحتال عليه المنصور بعد ذلك حتى قبل التوجه إلى محاربة عبد الله كارهاً ، وكان عبد الله قد رحل فى جيشه من أطراف الدروب وعاد إلى حران ، فلما بلغه إقبال أبى مسلم جمع إليه الجنود والسلاح وخندق ، وجمع إليه الطعام والعلوفة وما يصلحه ، ومضى أبو مسلم سائراً من الأنبار لم يتخلف عنه من القواد أحد ، وارتكب عبد الله فى خلال ذلك خطأً سياسيًّا جسيماً ، وأتى عملا وحشياً منكراً ، وذلك أنه خشى ألا يناصحه أهل خراسان ، فغدر بهم وقتل منهم عدداً ضخماً ، وحاول الفتك بالقائد الخراسانى القدير حميد بن قحطبة ، ولكن حميداً فطن لحيلته وهرب منه وانضم إلى جيش أبى مسلم .

وأقبل أبو مسلم فنزل على مقربة من جيش عبد الله ولم يعرض له ، ثم أخذ طريق الشام ، وكتب إلى عبد الله : «إنى لم أومر بقتالك ولم أوجه له ، ولكن أمير المؤمنين ولانى الشأم وإنما أريدها» ، فرأى من كان مع عبد الله من جند

الشام–وهم أكثر جيشه–أن يخرجوا إلى الشام ليدفعوا عن بلادهم غائلة أبى مسلم ، ولم تخدع حيلة أبى مسلم عبد الله ، ولكنه حاول عبثاً أن يثبت لهم أن أبا مسلم لا يريد الشام كما زعم ، وأنه لم يوجه إلا لقتالهم ، وغلب على أمره أخيراً وارتحل من معسكره متوجهاً نحو الشام ، وتحول أبو مسلم حتى نزل فى معسكره وغور ما كان حوله من المياه وألقى فيه الجيف ، وعاد عبد الله فنزل فى الموضع الذى عسكر فيه أبو مسلم ، واقتتلوا خمسة أشهر ، وأهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدة . وعمل لأبى مسلم عريش فكان يجلس عليه وينظر إلى القتال ويرسم الخطط ويصدر الأوامر ، ومكر أبو مسلم فى النهاية بجيش عبد الله وهزمه هزيمة نكراء ، ومضى عبد الله هارباً حتى قدم البصرة على أخيه سليمان وأقام عنده متوارياً .

وأغضى أبو جعفر عن عبد الله إغضاء موقوتاً ، فقد كسر شوكته وأمن شره إلى حد كبير ، وفرغ لمعالجة مشكلة أبى مسلم ، وكان يعتقد أن قتله ضرورة سياسية لا مندوحة عنها ، وقد اصطنع فى استدراجه الكثير من أفانين المكر وأساليب الدهاء ، وأخمد الثورات التى تلت مصرعه ، وأراد عبد الله أن يخطو خطوة يستلين بها قلب المنصور ، فبايع له فى سنة ثمان وثلاثين ومائة ، ولكن المنصور لم يكن الرجل الذى يقنع مع خصومه بأنصاف الحلول ، وكان همه قبل كل شىء التمكين لملكه ، وكان لا يعرف المجاملة ولا الرحمة فى مراس الحوادث ومعترك السياسة . ففى العام التالى عاد إلى تناول مسألة عبد الله ، وبدأ ذلك بعزله عمه سليمان عن البصرة ، وولى ما كان إليه رجلا من صنائعه اسمه سفيان بن معاوية ، فخامر الخوف من هذه الحركة عبد الله وعدها نذير شر فتوارى هو وأصحابه ضناً بأنفسهم ، وبلغ ذلك المنصور فبعث إلى سليمان وعيسى ابنى على وكتب إليهما فى إشخاص عبد الله ، وكتب إلى سفيان بن معاوية يعلمه ذلك

ويأمره بإزعاجها واستحثاثهما والتضييق عليهما للخروج بعبد الله ومن معه من خاصته ، فكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر فى أن يؤمنه ، واستقر الأمر على إعطائه الأمان ، وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن على ، فأمره عيسى بعمل نسخة للأمان لعبد الله فعملها ووكدها واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع فيها ، وترددت بين أبى جعفر وبينهم فى النسخة كتب إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، ولم يتهيأ لأبى جعفر إيقاع حيلة فيها لفرط احتياط ابن المقفع ، وكان الذى شق على أبى جعفر وساءه وأحقده أنه قال فى النسخة : يوقع بخطه فى أسفل الأمان « وإن أنا نلت عبد الله بن على أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفىّ من محمد بن على بن عبد الله ، ومولود لغير رشدة ، وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ، ولا عهد لى ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى ، وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين ، وهو متبرئ من الحلول والقوة ومدع ، إن كان ، أنه كافر بجميع الأديان ، ولقى ربه على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب ، والمناكح والمركب ، والرق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطى ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه والوفاء به » .

وإنى أرجح أن ابن المقفع بعد أن أنشأ هذا الأمان أخذته نشوة « الخلق » وأريحية الابتكار واعتقد بتلك البساطة النبيلة التى تغلب على طباع كبار الكتاب والمنشئين أنه قد عقد لداهية بنى العباس وإمامهم فى أساليب السياسة آخية لا يقطعها المهر الأرن ، ولكن هيهات فقد كان المنصور لا تضيق به خطة ، ولا تستعصى عليه حيلة ، وكان معين مكائده لا ينضب ، وقد تخلص من توقيع هذا الأمان . بحيلة

لا يسع الإنسان إزاءها إلا الإعجاب ببراعته ، فقد قال لأخوى عبد الله : «إذا وقعت عيني عليه فهذا الأمان له صحيح ، لأنى لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتى له ، فيسير فى البلاد ، ويسعى على بالفساد» وتهيأت له الحيلة من هذه الجهة - كما أوضح الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب ، ولما علم المنصور أن كاتب الأمان هو ابن المقفع أوحى إلى أصحابه أن يعملوا على اغتياله والخلاص منه .

وخرج سليمان وعيسى بعبد الله وبعامة قواده وخواص أصحابه ومواليه حتى قدموا على أبى جعفر ، فلما قدم سليمان وعيسى وطلبا الإذن لهما أذن لهما فدخلا عليه وأعلماه حضور عبد الله بن على وسألاه الإذن له ، فأذن لهما بذلك واسترسل معهما فى الحديث حتى شغلهما عن أمر عبد الله ، وكان قد هيأ له محبساً فى قصره ، وأمر به أن يصرف إليه بعد دخول عيسى وسليمان إليه ، ففعل ذلك به ، ولما أتم المنصور حديثه نهض من مجلسه وقال لسليمان وعيسى سارعا بعبد الله ، فلما خرجا افتقدا عبد الله من المجلس الذى كان فيه ، فعلما أنه قد حبس ، فانصرفا راجعين إلى أبى جعفر فحيل بينهما وبين الوصول إليه ، وأخذت عند ذلك سيوف من حضر من أصحاب عبد الله عن عواتقهم وحبسوا ، وأمر أبو جعفر بقتل بعضهم بحضرته وبعث بالبقية إلى خراسان فقتلوا بها .

ولما حبس عبد الله كان يكثر من التمثيل بقول العرجى !

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فبلغ ذلك المنصور فقال «هو أضاع نفسه بسوء فعله ، فكانت أنفسنا عندنا آثر من نفسه» .

ولما خرج على المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن العلوى الذى كان يلقب بالنفس الزكية ، وظهر بالمدينة ، أرسل أبو جعفر إلى عبد الله بن على وهو محبوس عنده يستشيره فى الموقف لما كان يعلمه من سداد رأيه وكمال عقله ، وأراد

عبد الله أن يستغل ذلك فقـــال: «إن المحبوس محبوس الرأى» فأرسل إليه المنصور: «لو جاءنى حتى يضرب بابى ما أخرجتك وأنا خير لك منه وهو ملك أهل بيتك» فأرسل إليه عبد الله برأيه، ولم تمنع الخصومة التى كانت بينهما المنصور من استصوابه والأخذ به.

ولما انتهى المنصور من إخماد ثورة العلويين، وقضى على حركتهم وأمن جانبهم شرع يعالج مسألة وراثة العرش، وكان أخوه أبو العباس – كما أوضحت فى الفصل السابع – قد عهد إليه بالخلافة من بعده على أن يكون ولى عهده عيسى بن موسى، ولكن لم يكن من المحتمل أن رجلا شديد الاعتداد بنفسه حريصاً على السلطة مثل المنصور يترك وراثة الملك لأحد من غير ذريته وأبنائه، بل كان المرجح أن يتلمس المنادح ويبتكر الحيل ليورث أحد أبنائه الخلافة، لأن مآثر الأبناء تكملة لحياة الآباء، والرجل المحب للقوة والراغب فى الحياة يحرص على تمديد حياته واستبقاء نفوذه من ناحية تمهيد الطريق لأبنائه وتوطيد مكانتهم وتمكينهم من وراثة الملك، ومثل هذا الرجل لا تنتهى مطامعه عند القبر بل تمتد إلى ما وراءه فى تأييد أولاده وتأييد حفدته. ولما حدثت ثورة العلويين التى كان يعرف المنصور شدتها وخطورتها استدعى عيسى بن موسى، وأسند إليه قيادة الجيش الذى أرسله لإخمادها، وقال لأحد المؤتمنين على سره «أرجو أن يقتل أحدهما الآخر».

ولكن شاء القدر أن يعود عيسى منتصراً مظفراً على رأسه إكليل الغار، وكان المنصور قد عزم على تقديم ابنه المهدى فى الخلافة عليه، وكلم عيسى فى ابتداء الأمر برقيق الكلام، ولما رأى امتناعه أرغمه إرغاما، وفرض عليه التنازل عن ولاية العهد للمهدى فرضاً، ولم يكتف بذلك، وأراد أن يتخلص من عيسى بن موسى وعمه عبد الله معاً، وكان قد عزل عيسى بن موسى عن ولاية الكوفة

وأوفده إلى بغداد ، فدعا به ذات ليلة فى جوف الليل ، وبعد أن تحدث معه فى مسائل شتى صرف الحديث إلى عمه عبد الله وقال له يا عيسى إن هذا أراد أن يزيل النعمة عنى وعنك وأنت ولى عهدى بعد المهدى ، والخلافة صائرة إليك ، فخذه إليك فاضرب عنقه ، وإياك أن تخور أو تضعف ، فتنقص علىّ أمرى الذى دبرت » ثم مضى بعد ذلك إلى الحجاز للقيام بفريضة الحج ، وكتب إلى عيسى بن موسى من طريقه ثلاث مرات يسأله ما فعل فى الأمر الذى أوعز إليه فيه ، فكتب إليه عيسى أنه قد أنفذ ما أمره به ، فلم يشك فى أنه قد فعل ما أمره به ، وقد خدع المنصور فى هذه المرة . وكان عيسى يعرف دهاء أبى جعفر ويشك فى نياته ومقاصده ، فلما دفع إليه عمه عبد الله ليقتله استراب فى الأمر وأحجم عن قتله واستشار كاتبه بعد أن أوقفه على جلية الأمر فقال كاتبه « إنه أراد أن يقتلك ويقتله ، أمرك بقتله سراً ، ثم يدعيه عليك علانية ، ثم يقيدك به » وأشار عليه أن يستر عبد الله فى منزله ، ولا يطلع على أمره أحداً ، وقدم المنصور من الحج مطمئن البال من ناحية الخلاص من عبد الله ، ودس إلى عمومته من يحركهم على مسألة هبة عبد الله لهم ، ويطمعهم فى أنه على استعداد لذلك ، فجاءوا إليه وكلموه ، وأظهروا له رقة ، رجاء أن يزول ما فى نفسه ويصفح عن عبد الله ، فأظهر القبول واستدعى عيسى فأتاه ، فطلب إليه أن يرد عمه عبد الله لأنه رأى الصفح عنه وتخلية سبيله ، فقال له عيسى « ألم تأمرنى بقتله فقتلته ؟ » فأنكر المنصور ذلك وقال له : « إنما أمرتك بحبسه فى منزلك » ثم قال لعمومته « إن عيسى قد أقر لكم بقتل أخيكم ، وادعى أنى أمرته بذلك وقد كذب » فطلبوا دفعه إليهم ليقتلوه به فقال لهم « شأنكم به » فأخرج عيسى إلى الرحبة واجتمع الناس وشهر الأمر ، وقام أحدهم فشهر سيفه وتقدم إلى عيسى ليضربه ، فلما تبين عيسى خطورة الأمر طلب أن يردوه إلى المنصور ، فلما ردوه إليه

ذكر له أن عمه عبد الله حي يرزق ، وأنه مستعد لإحضاره ، ووافق المنصور على ذلك ، فلما رد عيسى عبد الله قال المنصور « يدخل حتى أرى رأيي » وصرف بني عمه ، وأراغ المنصور المخرج من هذه الورطة ، فهداه رأيه ودله مكره على طريقة عجيبة للخلاص من عبد الله ، وذلك أنه جعله في بيت أساسه ملح ، وأجرى في أساسه الماء فسقط عليه البيت فمات ، وهكذا كانت خاتمة بطل وقعة الزاب ، وهازم جيش مروان ، وأحد موطدي أركان الدولة العباسية . واتفق بعد وفاة عبد الله على هذه الصورة أن ركب المنصور يوماً مع أحد أصحابه واسمه عبد الله بن عياش ، فقال له وهو يجاريه « أتعرف ثلاثة خلفاء أسماؤهم على العين مبدؤها قتلوا ثلاثة خوارج مبدأ أسمائهم العين ؟» فقال له : « لا أعرف إلا ما تقول العامة إن علياً قتل عثمان وكذبوا ، وعبد الملك بن مروان قتل عبد الرحمن بن الأشعث وعبد الله بن الزبير وعمرو بن سعيد ، وعبد الله بن علي سقط عليه البيت » فقال له المنصور « فسقط على عبد الله بن علي البيت فأنا ما ذنبي ؟ »

فقال له صاحبه : « ما قلت إن لك ذنباً ! »

وقد تحدث صاحبه بلسان السياسي المداهن ، ولم ينطق بلسان الإنسان الحر .

ولكن لماذا لم يجد المنصور سبيلاً إلى الصفح عن عمه عبد الله بعد أن غلبه في ميدان القتال وجرده من السلاح ، وأبعده عن مسرح الحوادث ؟ الواقع أن المنصور كان داهية عميق الدهاء جيد الخبرة بالنفس الإنسانية ، وقد أدرك بحصافته الواعية وقوة حسه أن عبد الله بن علي من ذوي الطبائع القوية الوثابة التي لا تعترف بالهزيمة ولا يتسور إليها اليأس والتي لا تني تعمل لتسترد مكانتها وتصل إلى غايتها ، وغيره قد يعرف اليأس والاستسلام ويخلد إلى السكينة ويطمئن إلى السلوان ، ولكن أمثاله من الجبابرة الطامعين يعتقدون على الدوام أن القدر قد أعد لهم دوراً مأثوراً في رواية الحياة ، وقد دفع عبد الله ثمناً غالياً لطموح نفسه ،

وجموح خياله ، ومهما كان من قسوته وخطل سياسته فإنه من الشخصيات التى ترغم المؤرخ على دراستها ، والعناية بأمرها ، وأحسب هذا من دلائل العظمة وسمات الامتياز.

فهرس

رقم الإيداع	١٩٧٧/٥٤٤٣
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ١٢١ - ٣

٨٦/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذا الكتاب

تلاقى الرجال العظماء الأفذاذ المختلفى الطرز والمواهب فى رحاب التاريخ من المشاهد الشائقة ، والأحداث الكثيرة الدلالة ، وقد تسفر عن نتائج غير متوقعة ، وتكشف جوانب من النفس الإنسانية مجهولة ، وقد تحدث المؤلف فى هذا الكتاب عن تلاقى نابليون القائد الحربى العبقرى بناليران السياسى الموهوب ، وتلاقى فردريك الأكبر البروسى بالكاتب الفرنسى الكبير فولتير ، وغيرهما من العظماء المختلفى المواهب والاتجاهات ، وعرض ذلك فى أسلوب واضح وتحليل دقيق شامل يلقى ضوءاً على التاريخ ، ويمدنا بمعلومات عن النفس الإنسانية والطبائع البشرية .